الأستاذ الدكتور

شاكر مصطفى

بقلم:

د. شاكر الفحام

رحم الله الأستاذ الصديق الدكتور شاكر مصطفى الذي فارقنا إلى جوار ربه (مساء يوم الخميس ٣١ / ٧ / ١٩٩٧ م) ، فكانت الفجيعة بفقده بالغة ، والخسارة فادحة .

إن الرزيئة لا رزيئة مثلها
فقدان كل أخ كضوء الكوكب

لقد افتقدنا الصديق الوفيّ ، والمؤرخ البحّاثة ، والكاتب البليغ المبدع ، والمفكر المستنير .

ولئن كان مجال القول فيه ذا سعة إن الموقف ليقتضيني أن أوجز لأفسح للسادة الزملاء أن يقولوا كلماتهم .

يحدثنا الفقيد الغالي أنه فطر منذ صباه على حب القراءة . كان يقرأ كل ما يقع تحت يديه من كتاب أو مجلة أو صحيفة . واتسعت قراءاته في السنوات الأخيرة من دراسته الثانوية . وأحبَّ الشعر وحاول نظمه ، وجرّب الرسم ، وأقبل على الموسيقى إقبال مشغوف . ولكنّ القراءة استأثرت به وغلبت عليه . يقول : (بلى ، كنت نهماً في القراءة ، أبتلع الرواية في جلسة أو أثنتين ، أتفكه بقصة وأنا أنتظر الغداء ، أقيم مسرحاً كاملاً وأدير شخوصه وأنا أقرأ)[1]

ومضى على سننَه يطالع ويطالع لا يتوقف ، وأسعفته حافظة قوية لا تكاد تنسى شيئاً . وكان جمَّ النشاط ، يعمل دائباً دون كلال ، ويقرأ كل شيء ، (كأن له ثأراً لدى المعرفة ،

أو سرّاً صميمياً في كل كتاب)[٢]

مازلت أذكر لقاءنا الأول في رحاب كلية الآداب بجامعة القاهرة (عام ١٩٤٣- ١٩٤٤ م) وقد راعني بسعة معارفه وتنوعها ، وحسن حديثه ، وقدرته على إقناع مجالسيه بما يسوق من حجج ، وما يقدّم من أدلّة . كان المتفوق أبداً بين أترابه في دراسته الجامعية .

وهدته المعرفة بعد ألاّ يمضي في جماحه ، يقرأ كل شيء ، وأن يتلبث ليختار ما هو أقرب إلى نفسه وأدنى رحماً فيوليه عنايته ، فإذا هو يتوقف عند التاريخ والأدب ليقول : (الأدب والتاريخ صنوان) وليعلن : (التاريخ مهنتي ، والأدب هواية عمري)[٣].

وهكذا سخّر مواهبه لتتلاقى جميعاً في نتاجه الرائع في التاريخ والأدب المحببين إلى نفسه.

وزادته التجربة والممارسة قناعة بما انتهى إليه ، ونستمع إليه يقول : (التاريخ ليس مهنتي فحسب ، ولكنه قدري)[٤].

وأقبل فقيدنا يواصل العمل ليل نهار ، كان يرى أن العبقرية كدح طويل لا يتوقف ، وسعيٌ دائب إلى الكمال[٥]. وأكبّ على التأليف والتصنيف بعد أن تراكمت بين يديه ثروة من المعارف نفيسة ضخمة ، جملها بذوقه المرهف ، وموهبته الفذّة ، وقراءاته الطويلة ، وضمّ إليها ملاحظه والتفاتاته الذكية الرائعة ، فإذا أنت تقرأ لوناً جديداً من التاريخ ، أو لوناً جديداً من الأدب ، بأسلوبه الجميل الرشيق الموحي، تتسرب فيه شاعرية شفافة رقيقة ، وتتراقص في سطوره صور شتى من أساطير قديمة شرقية وغربية ، أو خطرات فلسفية ، أو أقوالٌ مأثورة نادرة ، أو أشعارٌ من تراثنا العربي ، ومن تراث الأمم الأخرى ، تأتي في مواضعها دون تكلف ولا تصنّع ، وإنما يفيض بها الخاطر ، وتستدعيها المناسبة ، والزادُ وفير ، والمنجم غنيٌّ بجواهره .

إنه ليروعك ، وأنت تقرأ آثار الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى ، هذا الثراء العريض يتدفق بين يديك ، وقد بلغ ذروة الجودة ، معنى ومبنى ، فكراً وأسلوباً ، وتعجب أشد العجب لهذه المقدرة الفائقة التي لا يقوى عليها إلاّ العباقرة المبدعون .

ولقد ساعده تنوّعُ معارفه ، وغزارة مادته ، وسهولة أسلوبه ، وجدّه في عمله أن يخرج على الناس بهذا النتاج الوفير الباهر الممتع . أصدر منه ما أصدر ، وظل جزء من حبيس الرفوف . ولم يتوقف - رحمه الله - عن العطاء حتى أيامه الأخيرة .

وقد تجاوز عدد كتبه المطبوعة الأربعين ، وطائفة من هذه الكتب

تقع في مجلدات ، دعْ عنك ما حبّر من مقالات نشرت في المجلات والصحف ، وما ألقى من محاضرات وأحاديث ، وما شارك فيه من بحوث جادة هامة ، في الموسوعات والكتب الجامعة الشاملة .

واستأثر التاريخ بالقسم الأكبر من نتاجه . وقدّم بدراساته التاريخية نظراتٍ جديدةً ناقدة في فهم التاريخ العربي الإسلامي ، وفي سدّ ثغرات لم تبحث من قبل . وتخلّص في دراساته من الوقوع في إسار نظرات أجنبية عرضت لحضارتنا العربية من خلال مفهوم غربي ، ومقاييس غريبة عن مجتمعنا فوقعت في الظلال [٦].

يطالعك ذلك في كتبه : التاريخ العربي والمؤرخون ، المدن في الإسلام ، دولة بني العباس ، وأمثالها من الكتب النفيسة الضخمة التي أغنت المكتبة العربية ، وفتحت صفحة جديدة في دراسة التاريخ للأجيال العربية القادمة.

بل إنه لتتراءى لك لمحاتٌ من تلك النظرات الناقدة وتلك الكتيبات الصغيرة مما صدر في سلسلة أوراق من التاريخ ، وأمثالها .

كان يؤرقه الوصول إلى الحقيقة ، ويلقى في طريقه إليها ما يلقى من العنت والجهد ، لا يستسلم أبداً ، شعاره :

لا رآني الله أرعى روضة
سهلة الأكناف من شاء رعاها

إنه لا يقبل المسلّمات ، بل يخوض الغمرات ليبلغ الحق . يقول : (الحقيقة الخبيئة هي التي تجتذبني لا الأحكام المستقرة) [٧] ، (السفر في التاريخ متعةٌ مرّة) والبحث عن المنسيين وقفة عدل وإنصاف [٨] .

كان موضوعياً في دراساته ، وكان أخلاقياً يحبّ النصفة ، ويدور مع الحق حيث يدور : (وبيني وبين العدل حلفٌ يدخل في تكويني ونسيجي الروحي) [٩] .

كان يدعو دائماً إلى نبز التعصب للوصول إلى الحقيقة . وكان يمقتُ تلك الدراسات التي أملاها الحقد الدفين للنيل من الأمة العربية المجيدة والكيد لها .

وكثيراً من كتيباته التي صدرت في سلسلة أوراق من التاريخ إنما كان استجابة صادقة لمشاعره النبيلة مثل كتابه : المظلومون في التاريخ ، والمنسيون في التاريخ .

وأحبّ الدكتور شاكر مصطفى الأدب حباً جمّاً ، وأصفاه شطراً طيباً من نتاجه ، ولقد جمع في كتاباته الأدبية صفتي الكاتب المبدع ، والناقد الذواقة المؤرخ للأدب .

ومن أبرز كتبه في النقد والتاريخ للأب كتاباه : القصة في سورية (١٩٥٨ م) والأدب في البرازيل (١٩٨٦ م) ، وهما يدلان على ما يتمتع به صاحبهما من

مقدرة فائقة على الإحاطة بموضوعه ، والتغلب على صعابه ، ومن تذوق رفيع يتجلى في دقة نقده ، وحسن عرضه ، بأسلوب بلغ الغاية في السهولة واليسر .

أما مقالاته الأدبية الخالصة التي تناثرت في المجلات والصحف ، والتي نجد نماذج لها في طائفة مما نشر في سلسلة أوراق من التاريخ وأمثالها فهي مثل طيب لهذا النمط العالي من الكتابة ، يأسرك بأسلوبه الجميل الممتع ، تخالطه شاعرية رقيقة ، ويشدّك إليه بسهولته وصوره الأخاذة .

والسهولة هنا لا تعني السطحية وقرب الغور . فقارئي الدكتور شاكر مصطفى مضطر أن يستجمع كل طاقاته ، ليستطيع متابعته في كتاباته التي هي معرض لثقافته وقراءاته الكثيرة المدهشة بتنوعها ما بين الفلسفة والفنون والآداب والتاريخ . لقد كانت تتدفق في كلامه العبارات التي تشي بما ملأ نفسه من الثقافات ، والكتابة الفنية عنده عمل إرادي ما أضناه [١٠].

هل تريد أن أدلك على سهولة أسلوب الدكتور شاكر مصطفى وصعوبته في آن واحد ؟

سأكتفي بمثل واحد ، يقول : (على أنهم أرادوني أن أحمل شفتي) (شقّ) و (سطيح) ، أو كاهنة معبد الـف لأقول لهم ما لست أدري شيئاً صريحاً واضحاً عنه ، على أنه آتٍ لا محالة) [١١].

إن مثل هذه العبارات كثير في كلام فقيدنا الغالي ، وهو سهل واضح لمن كان واسع الثقافة .

فالعبارة القصيرة التي مثلنا بها تتطلب من قارئها أن يكون عارفاً بثقافة العرب الجاهليين ، ومكانة شقّ وسطيح بينهم ، ومطلعاً على ثقافة اليونان ، والمنزلة التي يحتلها معبد دلف في عقائدهم .

لقد استطاع الدكتور شاكر مصطفى أن يفرض بأدبه الجميل المتجدد ، المترع بثقافة الشرق والغرب سلطانة الأدبي ، وحين أجرت مجلة النقاد عام ١٩٥٤ ، استفتاء لاختيار أبرز ثلاثة كتاب في سورية ، كانوا : الأستاذ فؤاد الشائب ، والدكتور عبد السلام العجيلي ، والأستاذ شاكر مصطفى [١٢]. أرأيت إلى الأثر البعيد الذي خلفه في نفوس قرائه وهو ما يزال في ربيع العمر ؟

ولقد أخذ يكتب ويكتب الكثير المعجب نحو خمس وأربعين سنة ، فترك ثروة طائلة مازال جزءٌ منها لم يطبع ، وجزء آخر لم يجمع .

ومن منجزات الدكتور شاكر جهوده الموفقة لإصدار مجلة الثقافة العالمية بالكويت ، ولقد حدثني الحديث الطويل عما عانى وبذل حتى نجح في هذا المشروع الثقافي .

ومن منجزاته الهامة الخطة

الشاملة للثقافة العربية ، فقد اختارته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عضواً وأميناً في اللجنة التي ألفتها لوضع الخطة الشاملة ، فقام بالعمل أربع سنوات (١٩٨٢ – ١٩٨٥ م) وأنجزه على خير الوجوه وأرضاها ، وقدّم تقرير اللجنة ، وضمّ إليه الدراسات التي تمت مناقشاتها في الندوات التي دعت إليها اللجنة ، فأقرها مؤتمر وزراء الثقافة العرب ، والمؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وصدرت في ست مجلدات فكانت وثيقة فكرية للثقافة العربية ، ومنهلاً خصباً للدارسين والمتشوفين إلى مستقبل الثقافة العربية.

خيرُ ما أختم به هذه العجالة أن أشير إلى الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى المربّي ، فقد نهض بتربية الأجيال سنين تجاوز الثلاثين ، وغرس في نفوسهم حب الوطن وحب المعرفة ، وهيأهم ليتابعوا رسالة العلم التي هي أهم مرتكز من مرتكزات النهضة في وطننا العربي.

لقد كان الأستاذ شاكر مصطفى من كبار علمائنا ومفكرينا الذين أغنوا المكتبة العربية ، وتركوا آثاراً بينة في مسيرتنا الثقافية . لقد فتح بتأليفه ودراساته للأجيال الجديدة أفاقاً رحبة ، وأثار فيهم الرغبة والشوق ليتابعوا الطريق ، وينشدون الكمال .

رحمه الله الرحمة الواسعة ، وأسكنه فسيح جنانه مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

(١) بين الأدب والتاريخ: ١٠، وانظر في ركاب الشيطان: ١٥
(٢) في ركاب الشيطان : ١٥
(٣) بين الأدب والتاريخ : ١٦٨ ، ١٦٩
(٤) المنسيون في التاريخ : ١١
(٥) بيني وبينك : ٤١ – ٤٣
(٦) المدن في الإسلام ١ : ١٤
(٧) المظلومون في التاريخ : ٩
(٨) المنسيون في التاريخ : ١١ ، ١٤
(٩) المظلومون في التاريخ : ٧
(١٠) في ركاب الشيطان : ١٨
(١١) في ركاب الشيطان : ٢١
(١٢) في ركاب الشيطان : ١٣

النجم الذي غاب..

لا السمع يدرك ما يجري ولا البصر
خطب ألم بمن غابوا ومن حضروا
خطب تزلزل أركان البلاد له
ولا تجادل فيما شاءه القدر
سرى النعي دوياً في مسامعنا
وكم وددت بأن لا يصدق الخبر
بدت دمشق وكان الحزن يلبسها
ثوب الحداد فلا شمس ولا قمر

وكان يخطف هول الخطب بهجتها
وتستدر عليها أدمعٌ غزرُ
تبكي البلاد ويبكي كل ذي قلمٍ
من قلدت أمرها في فنها مضر
تبكي دمشق كأم عاقر فقدت
من كانت الأم قبل العقم تنتظر
أبى الحمام حياءً أن تموت بها
كأن موتك ذنب ليس يغتفر

فشاء ربك أن تمضي إلى جبلٍ
وما علمت بأن الروح تحتضر
على الخلائق حكمٌ يا أبا حكمٍ
تقضى الحياة ويمضي دونها البشر
على العباد قضاء ليس يدفعه
من كان متضعاً أو من به صعر

هي المنون سرت في الخلق مذ خلقوا
وما تفلت منها كاره حذر
و لا يموت ذوو فكر ومعرفةٍ
إذا استقام على أعقابهم أثر

إيه أبا حكم ذكرى تعاودني
أيام ينثر من قيثاره عمر
ونحن نجلس بين الصحب في سمرٍ
ومجد معبد كاجوراو يذكر
وإذ تردد مما قاله عمرٌ
(إن الكريم ليعطي وهو يعتذر)
نذرت عمرك للتاريخ تنصفه
بصرخة الحق لا تبقي ولا تذر

وإذ رددت عن الحجاج مظلمةً
ودمع كافور في كفيك ينهمر
وإذ رأيت صلاح الدين يخدشه
أخو الجهالة من ضلت به الفكر
همى بيانك تبياناً ومعرفةً
وأسفر الحق لما جئت تبتدر
وفي البيان لأهل الحق مرحمةٌ
وفيه إن شئت للباغين مزدجر

أرى تراثك تستهدي به أممٌ
فهل نفيد به درساً ونعتبر
أبا المعارف .. ليت الشعر ينجدني
في ذكر فضلك فيما كنت تبتكر
إذا استترت وراء الغيب في جدثٍ
فما رأيتك في ذكراك تستتر
فمثلك النجم تأتم الهداة به
ولا يزال لهم في ضوئه وطر

أتـــى بنـــوك بــــلألاء بـــه نثـــــروا
علـــى جبينـــك والغـــار الذي ضفـــروا
إذا تفكـــر فـــي ســـبل العـــلا رجـــلٌ
ففـــي عـــلاك لباغـــي المجـــد معبـــرُ
أخلاقـــك الغُـــر تبديهـــا ســـبيل هـــدىً
وتستتـــر تقـــىً أخلاقـــك الأخـــرُ
ففي يـــمينك شـــمسٌ للنهـــى ســـطعت
وفي يســـارك من ســـر الهـــوى قمـــر

أنـــا نجيـــك فـــي الهـــم الـــذي اختلجـــت
بـــه حنايـــاك حيـــن الهـــم يحتضـــر
عـــذراً إليـــك فبعـــض الحـــزن بحت بـــه
ولا أبـــوح ببعـــض منـــه . . يســـتعر
رأيـــت قبـــرك يحكـــي نـــور ســـاكنه
وقـــد تـــجلت بـــه الآيـــات والســـور
فنـــم ، عليـــك مـــن الرحمـــن مغفـــرةٌ
مـــادام إرثـــك فـــي الآفـــاق ينتشـــر

المعلم الذي رحل

بقلم:
قمر الكيلاني

من مقدمة كتاب (المنسيون في التاريخ) يقول لصاحبه : (ماذا أنسى ؟ زنجية آلامي ؟ وقلبي صخرة فحمة . فراغ رهيب أنا هامة الأمس . أنا منسي هنا . مني إلى الأبد . منسي حتى الموت . أنا النسيان نفسه . الغبار الدهري يفترسني كتتين الأساطير . أنطلق وحدك . في قدميك جناحا هرمز فطر بهما قبل انشودة المطر والظلام . وقبل أن تلتمع الجمجمة كشهاب)

لا .. أيها المعلم الراحل .. لست النسيان .. لأنك ستخلد بما قدمت وأعطيت . وأنك الأبد .

أيها الحفل الكريم :

يصعب عليّ حتى المرارة وذروة الحزن أن أقف بينكم لأرثي أستاذي المعلم الذي رحل د. شاكر مصطفى ، وكنت منذ اسابيع مضت فرحة وأنا الفظ الدر والجوهر من مؤلفاته من أجل التكريم .

كانت صدمة لنا جيمعاً . . فقد رحل استاذنا المعلم الكبير . . وكأن الموت أخطأ موعده فيه . . أو كان لم يعد يريد أن يبقى بيننا . هذا الإنسان الكبير شعلة ضياء . . وينبوع عطاء . . فلقد نشرت مقتطفات من محاضرته الأخيرة بعد أن كان قد رحل .

ماذا أقول عن معلمنا . . وأستاذ من أساتذة جيلنا في هذه

السطور القليلة والدقائق الأقل :
هل أقول إنه كان مؤرخاً وكفى : أم أن التاريخ كان قدره : هو يعترف بذلك قائلاً (التاريخ ليس مهنتي فحسب . . لكنه قدري . ولأنه قدري فأنا أعانيه بحنان عاشق وبقسوة الخنجر معاً)

في التاريخ وضع الكتب الكثيرة والتي ظلت تتكاثر حتى آخر قطرة من حياته . وهي دليل وشاهد لكن التاريخ بين يديه ليس أحداثاً وشخوصاً ووقائع . إنه نبض الحياة . بل مسرح هائل للحياة استطاع أن يصعد إلى منصته فيحاوره ويفهم منه ما لم يفهمه سواه . . ويعرض كنوزه ولآلئه حتى التي لم يعثر عليها أحد . كان يستحضر التاريخ . وكان شخص ليحاكمه ويقاضيه . وهو القائل (منذ زمن وأنا أعابث التاريخ ويعابثني ولطالما جلست وجلس ... ونضحك) فهناك السخط إذن . . وهناك الضحك . وهذا التاريخ الشخص ككل شخص يتأزم ويثور ويغضب . مادام (كما يقول) ، (هو الناس في مضطرب الحياة فسوف تكون أزمة وغضب . وتكون ثورة أيضاً . . وانتقام . نعم لحظات التاريخ يمتزج فيها العقل بالجنون وتصبح العيون حمراء بلون الكرز وتمشي الجموع كحقول السنابل تذهب بها موجة وتلو بها أخرى)

اذن . . هو صاحب (رؤيا) للتاريخ وأستطيع القول إنه صاحب (كشف) صوتي أيضاً فما أكثر ما تقول فيما أرخه . . هذه هي الحقيقة . . ولا حقيقة سواها . .

ولعل هذه الحالة قد رصدها علماء بارزون في التاريخ وحاولوا التعبير عنها كما فعل (ارنولد نويتبي) في علاقته مع التاريخ علماً بأن د. شاكر يقتصر على تاريخ أمته . . هذا البحر الهائج الزاخر باستمرار بل انسحب فوق تاريخ الأمم والشعوب . عاينها وربما عايشها مما أتاحت له ظروفه في الرحلات والأسفار والمهمات فهو في هذا المجال مؤرخ عالمي ولكن بطريقته الخاصة .

طريقة انتقائية استثنائية يدفع معها بقارئه بفرادة نادرة إلى قلب الحدث أو صميم الشخصية التاريخية فيستوعبها القارئ وكأنه قرأ كتابه بأكمله . هذا الكشف الذي اسميه صوفياً جعله في حالة (وجد) مع التاريخ . . قديمه وحديثه حتى أصبح في (حال) دائم معه . هيأ له (مقاماً) كمؤرخ لا يعد له مقام.

نقطتان أود أن أشير إليهما مرتبطان بل ومتلبستان بالتاريخ وهما :

أولاً أن أستاذنا كان أديباً . . كما هو المؤرخ ، إن له أسلوباً فريداً . . سلساً وعذباً وجميلاً . . يقرب أحياناً من الشعر . . بل هو الشعر . وأنت تقرأ أي كتاب أو مقالة أو تستمع إلى محاضرة تكون مأخوذاً بهذه الرشاقة في التعبير . . وبهذه اللغة التي تقطر حلاوة فلا ندري هل تتابع المضمون أو المحتوى أم نستمتع بالأسلوب وهو من الشهد أحلى ؟

ليزد ذلك قدرته على امتلاك ناصية اللغة العربية وغزارة المفردات التي يمتلكها إضافة إلى الصور الفنية المحكم نسجها مع الفكرة وكأنهما جسد وروح .

وثانياً إن د. شاكر كان مثقفاً من طراز رفيع . تلك الثقافة التي شملت إلى جانب التاريخ الفلسفة والأدب وبلغات أجنبية أربع وكذلك بالتراث . . ليس التراث العربي فقط . . بل الأعمق غوراً وهو التراث القديم . . وليس التراث المرصود المخبوء في الكتب القديمة والمخطوطات والأوراق الصفراء بل في الآثار والأوابد وما تتكشف عنه الحفريات والبحوث التاريخية المستندة إلى النهج العلمي فقد كان هو أيضاً يناقش التاريخ ويفك رموزه ويتغلغل فيه بروح العالم وبالمنهج العقلي وبما يقضيه منطق التاريخ . . كل أوانٍ بأوان . . وكل حدث أو شخص بظروفه وأزمانه .

وما أنا بحاجة إلى أدلة فهي ساطعة ناصعة وخاصة في تلك السلسلة الثرية والخفيفة من كتيبات صغيرة معنونة ضمن موضوعات معينة جمعها من مصادر شتى فشكلت أنهاراً وجداول وسواقي من بحر التاريخ . وهذا أيضاً مما نفتقد إليه في تاريخنا (أقصد الموضوعات) فالتدوين لدى العرب - كما هو معروف على قلته - كان يعتمد اسلوب الإستطراد والدخول في موضوع ليتداخل مع موضوعات فرعية أخرى بطريقة التداعي وربما كانت التراجم والسير هي الأساس في طرح الموضوعات وخاصة التاريخية منها.

وحول زخم التاريخ لدى د. شاكر وتلك الإنتقائية التي عمد إليها كمؤرخ مجدد نقطف هذه العبارات القصيرة من مقدمة كتابه (بين الأدب والتاريخ)

(أصحابي الذين يتهمونني بالجد الدائم في الحديث والتمسك بالنصوص والواقع الدقيق فسوف يفاجؤون بأني أيضاً ابن الأحلام والرؤى كما أنني ابن الحقائق الملموسة وشطحان الخيال والوهم . تأكل من قلبي بقدر ما يأكل الواقع . التاريخ الذي يشغلني يغرقني . .

يملؤني حتى الإفعام . تقابله عوالم لا تنتهي من الرؤى . لم تتسلل فقط من الأدب لكن من طبيعة عملي القائم بدوره على التصور والبناء في الفراغ . وأجدني منجذباً إلى قصص الأدب وأحداثه الضبابية انجذابي إلى قصص التاريخ بواقعيتها الساحرة سواء بسواء)

هو إذن لا يضع حاجزاً أو فاصلاً بين الأدب والتاريخ ، والأدب بطبيعته جزء من التاريخ بطريقة أو بأخرى . ولعل الذي يستهويه أكثر لما فيه من شحنة الرؤى والحلم والخيال . الأدب برحابه الفسيحة يشوقه . . ويروق له أكثر . فهو أديب بكامله . . أو عن فرقاء عمل وليس عن شخص واحد فقط .

أما عن مساهمته في سلسلة (عالم المعرفة) تلك المساهمة المجدية والفعّالة . . والتي ظهر منها – أي المساهمة – أقل مما استتر فهذا أمر يحتاج إلى من يعود إليه في أبحاث خاصة ومن متخصصين أيضاً لاسيما من الذين زاملوه في مسيرة التحرير وساهموا في هذا المشروع المفيد والقليل في نوعيته في العالم العربي .

وأنا واثقة أن د. شاكر كان يملك من الحماسة المقدار الكبير . . إلى جانب الإخلاص الكبير .

الحق.. أيها الحفل الكريم إنني عاجزة في لمحات قصيرة عن أن أشير إلى دوائر الضوء في حياة فقيدنا الثقافية أما المعلم الرئيسي والبارز فهو أنه كان عربياً نقياً . . مخلصاً لعروبته . . وأن عقيدته كانت راسخة امتزجت كلياً بالعروبة والإسلام . ولا مجال للقول إنه أحب وطنه سوريا . . ودمشق خاصة حباً عظيماً وحمل معه هذا الحب إينما حل وحيثما ارتحل في مهام الوظيفة أو مسؤولياته الثقافية . هذا الحب الذي انسحب على وطنه الأكبر – الوطن العربي – خلال إيمانه بالأمة الواحدة . وكان سفيراً دائماً للعروبة إينما تنقل . . في المهجر أو في المستقر الذي بالفطرة . . ولو لم يكن مؤرخاً لكان أديباً أو شاعراً.

نقطة أخرى أود أن أشير إليها وهي أن فقيدنا كان ذا ثقافة موسوعية ومؤلفاته أيضاً موسوعة . ليس بالمعنى الموسوعي الدقيق لعلم الموسوعات الذي يعتمد منهجاً محدداً وإنما تلك الموسوعة الذوقية التي تقتضي من صاحبها وهو المشبع بروح التاريخ أكثر مما يشغل اهتمام الدارسين والباحثين والأكاديميين وأكثر مما يثير التساؤل أو الرغبة في التساؤل لدى القراء العاديين

الذين استقرت في دواخلهم أحداث من التاريخ تناقلوها عبر الأجيال . أو ترسبت لديهم صور معينة عن أبطال من التاريخ معلومين أو مجهولين . وربما لم تمتد إليهم يد باحث فهو بحسه التاريخي الكاشف يستطيع أن ينشر صفحات مطوية كانت غائبة عن المؤرخين وعن الناس عموماً . أي أنه يلفظها ويضعها حجراً في بناء التاريخ العظيم . وهو المؤمن أن التاريخ تصنعه الشعوب . وأولئك الذين لم يأت التاريخ على ذكرهم إلاّ بلمحات ضئيلة.

وأستطيع القول أيضاً أمام ضخامة إنتاجه وتنوعه وخيوطه التي تبدو متباعدة إلاّ أنها في النتيجة ترتبط بنسيج واحد .

أستطيع القول إن إنتاجه هذا كان يمكن أن يصدر عن مؤسسة طاول ربع قرن في الدولة الشقيقة الفتية (الكويت)

وليسمح لي الحضور الكريم أن آخذ نسخة صغيرة من هذه الكلمة الصغيرة عن أستاذي ومعلمي د. شاكر قبل أن تتوزع بنا دروب العطاء الأدبي والثقافي قبل عقود ثلاثة من الزمن أو أقل أو أكثر .

فأنا أذكر . .

أذكر . . بل لا يمكن أن أنسى – أنني وأنا في معهد دوحة الأدب في نهاية الأربعينات وأستاذ التاريخ هو د. شاكر . لم يكن قد حصل على الدكتوراه بعد . . ولم تكن الجامعة السورية (أو جامعة دمشق حالياً) قد تأسست بعد ، وكنت مشغوفة بدرس التاريخ بذلك الأسلوب الخاص والمميز لأستاذنا . . وبتلك اللغة العربية الصافية التي كنت أتلقاها وأنا مولعة بها . اللغة والتاريخ والثقافة الواسعة الغنية التي تمتع بها أستاذنا . . وكان أكثر من أستاذ لنا جميعاً . . كان (معلماً) ينثر الحكمة والفلسفة ويرعى إمكانيات طالباته ويشجعها بم فيها الإمكانيات الأدبية . هل كان شاعراً ؟ لا أدري . . هل كان كاتباً قصصياً ؟ ايضاً لم أكن أدري . . كل ما أعرفه أنه عندما اكتشف موهبتي في الكتابة وأنا في صف البكالوريا أخذ يقرأ قصصي وأوراقي ويرصفها بخطه الأنيق الجميل ، بملاحظاته . . وهي لا تزال بين مذكراتي فكان – رحمه الله – المعلم الأول لي .. والموجه الأول لطموحي نحو درب الأدب وقد كنت لا أعرف طريقي إليه . وظل كذلك بالنسبة لأجيال أتت من بعدي حتى آخر كتاب لكاتبة قصصية شابة فقد زينه بمقدمة لطيفة.

وبما أنني وكثير من أبناء جيلي لم نكن نملك مكتبة في

البيت فقد كان استاذنا يمدنا من مكتبته بما نرغب في قراءته . . وبما يقترح علينا هو نفسه قراءته (عارية ومردودة) وهكذا تفتحت آفاقنا الفكرية حتى قبل أن ندخل الجامعة . . وكان يناقشنا بما يتاح له من الوقت أثناء الإستراحة في المدرسة أو في أوقات يخصصها لهذا الشأن . . وكنت أسجل ملاحظاتي وأقدمها له فيعطي رأيه فيها .

أذكر نهاية الأربعينات . . والنهوض التعليمي . . والمخاض الثوري وبروز الأحزاب القومية وعلى رأسها حزب البعث . . وأستاذنا المرحوم يضيء حماسة عربية خالصة . يؤمن أول ما يؤمن بتاريخ أمته المجيد وبرسالتها الخالدة. فإذا بنا كجيل يتفتح على التقدم ولا تزال آثار الأستعمار عالقة بمظاهرها . . ولغتها . . وآفاق الأفتتان لها . إذا بنا نفتح عيوننا . . وأذهاننا . . وقلوبنا على مقولات عربية راسخة وثابتة تقوي من عزائمنا . . وتملأ نفوسنا أملاً بالمستقبل . . . مستقبل بلاده وما يجب أن نقدمه لها .

إنها البذور الأولى . . تلك التي غرسها فينا أستاذنا (المعلم) هو وغيره من أساتذتنا الأفاضل في تلك الفترة . . رحم الله من قضى منهم . . وأطال عمر من بقي بيننا مشعل ضياء .

وأذكر فيما أذكر أننا وأثناء دراستنا الجامعية صدر كتاب (حضارة الطين) توقفت أمامه مندهشة . . هذا أدب رفيع . بأسلوب رائع . . ومضامينه مشوقة إنها روح المبدع الحقيقي والإبداع لا يتجزأ . ثم صدر من بعده كتاب ، تاريخ القصة في سوريا . . فكان توثيقاً وتحليلاً كما كان مسحاً تاريخياً ضرورياً .

وهكذا توالت المؤلفات . . وهي بين أيدينا أمواج عطاء . . ونعمة ثراء . . وماء يسقي الأرض ويمد الجذور بالخصب والنماء .

وبعد . . أيها الحضور الكرام . . هذه زهرات وفاء متواضعة كان عليّ أن أقدمها عني وعن بنات جبلي وعن الزملاء من الكتاب والأدباء . . والمثقفين والشعراء .

زهرات صغيرة . . صغيرة لإنسان وعلاقة كبير كبير.

ذلك أن من يزرع الخير والمحبة والعطاء من الذات . . أنبل أنواع العطاء لا بد أن يحصد نجوماً تظل تضيء في السماء.. سماء الحرف الأصيل الجميل . . كما تضيء في الصدور كلما تكلمت السطور .

رحم اله فقيد الكلمة الحرة الجميلة . . وألهم أسرته الصبر الجميل .

في رثاء الأديب الكبير

الدكتور شاكر مصطفى

أكرّم شعري في رثاء مُكرَّم
ويعظُم قدري في امتداح معظّم

ويسمو بياني في سماء مؤدِّبٍ
له في بياني فضلُ راعٍ ومنعم

وقد يرتوي الظامي من الماء شارباً
ولا يرتوي الصادي بغيث معلّم

فيا ساقيَ الكتّاب خمر بيانهم
ويا مطعم القرّاء أطيب مطعم

أتيتُ أوفّيك الديون قصائداً
فناء بها شعري وعيّ بها فمي

ولمّا أحِطْ فيما كتبتَ مؤدباً
فقد بُهرت عيناي من ضوء أنجم

فكلُّ كتابٍ في سماك مجرّةٌ
وكلُّ حديثٍ كالضحى غيرُ مبهم

وكلٌّ مقال مِن دنانك مسكرٌ

كخمر جنان الخُلد في قلب مسلم

ولَمتَ بأصناف البيان من القِرى

على سُمطٍ عزّتْ على كل مولم

وترجمتَ ما تخفي الصدور تبصّراً

وعرّبت ما قد خطّه كلُّ أعجمي

كأنك تأبى أن تَفوتَك فكرةٌ

لتنقلها للناس من كل معجم

نفرتَ إلى حطين تكتب مجدها

فيا لك من شهمٍ ويا لك من كَمي

كأنّ صلاح الدين أعطاك سيفَه

وما السيفُ من فضلِ اليراع بأعظم

ترحّلت في الدنيا وعنها ولم يزل

سناؤك يجلو كل داجٍ ومعتِم

أنرت عقول الناس في ليل جهلها

وأغنيتها من كل فصلٍ ومَوْسم

وغبتَ وقد خلّفت في كل خافقٍ

ضريحاً به تثوي بدفء منعّم

كما تحضن الأم الرؤوم وليدها

ويحنو إله الكون للمتيتم

أخا الحرف لا تجزعُ لآخر رحلةٍ
رحلتَ بها فرداً إلي خير ملهم

رجعتَ لمن أعطاك من سرّ علمه
فكنتَ بما أعطاك خيرَ معلم

سنحمل عنك الحزن من جهل عالمٍ
عن العلم والاعلام والحقّ قد عَمي

كذا رحل الأفذاذ قبلك مثلما
تغيبُ عن الكون الشموس وترتمي

وكم تخطىء العين الكبير إذا سما
ويُستكبر الأدنى بعين موهّم

فما كل من يرنو إليك بمبصرٍ
ولا كل من لم يروِ عنك بأبكم

فإن غَفَلَتْ عنكَ العيون لبَهرها
وأعيَ الأسى لَسناً فلم يتكلم

فكم فرقدٍ قد غاب من غير أن يُرى
به الأرض لو قيست كحبة سمسم

وتبقى قلوب العاشقين خمائلاً
بها، ولها يأوي الأديب ويحتمي

وتبقى عقول القارئين ممالكاً
لفكر أديب مبدعٍ متكلم

فيا (شاكراً) أغنى التراث بديعه
ويا (مصطفى) من صفوة لم تثلّم
ترحَّلت في ركب العلوم مجاهداً
لتكشف سِتْرَ الشكّ عن كل مبهم
ولم تَخْشَ من قولِ الحقيقةِ لائماً
ولا حقدَ موتورٍ ولا مُتحكّم
ومن كتب التاريخ بالحق صادقاً
فترِياقه يحميه من سُمٍّ أرقم
أبيت انتماءً في الحياة لموطنٍ
وعشت إلى كل العروبة تنتمي
كذا الفكر كالأطيار يبقى محلقاً
ولا يُحبس الفكر الطليق بقمقم
مضيتَ إلى أرض الكويت سحائباً
تجود وما الطائيُّ منك بأكرم
وأديّت في هذي الحياةِ رسالةً
سَمَتْ وارتقتْ عن كل جاهٍ ومغنم
فكنت طبيبَ الجهل تسقيه بلسماً
من العلم أشفى من دواءٍ وبلسم
نذرتَ لوجه الله جُهدَك خالصاً
ومن يبغِ وجه الله في العلم يكرم

وخلّدت في التاريخ ذكرَ ضياغمٍ

فخلّدكَ التاريخ في بأس ضيغم

وعُمْرُ الفتى مهما يَطُلْ مثلُ وامضٍ

بأجواء دهرٍ سرمديٍّ ومظلم

ولا يتحدى الدهرَ إلا مجاهدٌ

بسيف أديبٍ مبدعٍ متفهم

يطوف بأفلاك الشموس مخلّداً

ويحيا برغم الدهر ما بين أنجم

فإن غاب عنا (شاكرٌ) برحيله

وآب إلى ربّ القضاء المحتم

فأسفاره تحيا ويحيا بذكرها

بكلِّ زمانٍ في إهاب معلّم

وما جئتُ في تأبينه اليوم إنما

أتيتُ لأسقى من بيان مكرَّم

ومن مات في ركب البيان مجاهداً

شهيدٌ وحيٌّ في عقيدة مسلم

* * *

غـــاب
شاكر مصطفى

بقلم:
د. بديع حقي

هكذا قضى الله أن يكون الحفل المعدُّ لتكريمه والإحتفاء بأدبه الفذ حفل تأبينٍ ، يجلو فضله على الأدب العربي المعاصر كاتباً فذاً لا مثيل لأسلوبه الآسر ، الساحر ، ومؤرخاً منصفاً ، غمس نظراته الطلعة ، في تاريخنا العربي الخالد ، وفوّفه بنقلات قلمه المبدع ، وأن تكون كلمتي هذه التي أعددتها لتكريمه تقبس جمرتها من حرقة حزني وأسى قلبي عليه ، وأن تترسّل حروف كلمتي ، ماتحة معانيها وبعض ألفاظها ، مما كنت قد استجليت ونوهت به من قبل .

حين أنهى صديقي الأستاذ عصام الحلبي نبأ وفاته ، هاتفياً - وكنت في بلودان - لم يصدّق عقلي أن الموت يمكن أن يختطفه منا ، وحفل تكريمه المؤمّل قريبُ ، بعد أيامٍ قلائل ، بيد أن فجيعتي به - هو صديق العمر والكلمة - تجلت حقيقة مريرةً لا ريب فيها ، وانهمرت دموعي سخية ، ندية وبكيت بحرقة .

ولم يتسنَّ لي ، وا أسفاه أن أشيّعه وأخفَّ إلى دمشق ، لأنني كنت أعاني ، آنذاك ، من أزمةٍ قلبيةٍ

مثلما كان يعاني هو من قلبه ، وتساءلت : ترى متى سألحق به ليضمّنا تراب وطننا الحبيب ؟

متمنياً على الله ، أن يقول شاكر رثائي ، يا منصف الموتى من الأحياء .

ويمثل ، الآن ، في خاطري ، فيما أنقل أنا نظري في آثاره الأدبية والتاريخية التي خلّفها ، أن قلمه لم يكن يألف الراحة ويسيغ الطمأنينة ، منكباً على الصفحة البيضاء المنفسحة أمام هذا القلم المبدع الرشيق ، ليلوّنها بلعابه السحري ، لتسنح في خاطري ما ذكره الكاتب الفرنسي (أندره موروا) بقوله :

(إنني أتمنى أن يداهمني الموت ، ما بين نقطةٍ وفاصلةٍ من جملة أعكف على كتابتها) ، فقد ذكر لي الصديق الشاعر مدحة عكاش ، أنه عاده في وعكته الأخيرة التي التحق فيها بالرفيق الأعلى ، فوجده يكتب ، والقلم الملهم ينتقل أمام الصفحة المنبسطة أمام عينيه ، بين نقطة وفاصلة ، من جملة كان بسبيل كتابتها ، فكأنه يحقق أمنية الكاتب الفرنسي موروا ، حتى النفس الأخير من حياته الحافلة .

وإنه ليحلو لي أن أتخيّل شاكر مصطفى ساهراً يقظان ، حفيّاً بكلماته التي هيمت في ذهنه ، حانياً عليها ، مشذّباً ، صاقلاً ، مستبدلاً بلفظٍ لم يرضَ عنه ، لفظاً ألطف وأحلى وأرقّ وأندى ، وأتمثله يتذوق كلماته ، يلهث بها ، مصغياً بأذنه المرهفة ، ليترقرق أسلوبه من مؤتلفها ، كما ولا أحلى .

إنه أسلوب شاكر مصطفى ، المتميز ، الآسر ، الساحر .

إنه يعرف كيف يتغلغل إلى العقول ويقنعها ، حين يروق له أن يمدّ نظره المتطلع إلى نصٍ تاريخي مقلباً وجوه الرأي فيه مستنبطاً ، محققاً وكاتباً لا نظير لأسلوبه بين أساليب الكتاب المعاصرين وناقداً فذاً ، تأتّى له بحاسته النقدية

واطّلاعه العميق أن ينفذ إلى أي نصٍ أدبي ، شعراً كان أم قصة أم رواية أم دراسة وينقرّى محاسنه مطرياً ومشجعاً ، أو يتلمس هفواته في الإشارة إليه بلطفٍ وعطفٍ من دون الإساءة إلى صاحب النص ، أو الغمز من قناته .

هأنذا ارى إلى طيف المؤرخ النابه ، المدقق ، يعانق في إهابه شاكر مصطفى طيف الأديب الناقد الذي اجتمعت له أدوات النقد ، ناضجة ، مكتملة ، فألمَّ بها وتصرّف بإحساس العارف البصير وأن

أشير إلى مؤلفاته التاريخية الضخمة وجلّها يمتح من تاريخنا العربي القديم والمعاصر ، ليريقها كما الينبوع المتدفق ، المترفق ماءً وبركة ، مانحاً وارده والناهل

منه ريّا وطلاوة مستحبة ، ذاكراً ، إلى هذا كتابه الرائع عن القصة في سورية ، المتضمّن تقويمه المنصف الذي أحاط به روّاد القصة والرواية في بلدنا الحبيب ، مقدّراً آثارهم المرموقة المتميّزة .

ويطلّ سؤالٌ لا يني يجاذبني ويحكُّ في صدري ، فأتساءل علام لم يطرق شاكر مصطفى باب القصة والرواية - هو الأديب الذواقة ذو الأحاسيس المرهفة - مع أنه مؤهلٌ لهما بأسلوبه الماتع ، الرائع ؟

تراه استغنى هو المؤرخ الذي يسوق أقدار شخصياته بكلماته

النابضة بالحركة والحياة عن تجربة القصة والرواية ، بله تجربة الشعر - هو الذي يمتلك نثراً اشبه بالشعر - أم أن طيف الناقد الكامن في إهابه كان يثنيه ويصدّه عنها ، على الرغم من إبداعه في تقويم المبدعين العظام من الشعراء والقصصين والروائيين العرب ؟

آخذاً بمدرجة فاليري الذي يرى أن إبداع الكاتب المبدع يتناقص تبعاً لنمو شعور الناقد الكامن في عطفيه ، لأنه يحمله على التردد والريبة في أثره الإبداعي .

ها هو ذا يتراءى لي مؤثراً عزلة الأديب ، مفضلاً صحبة الكتاب على صحبة الناس ، مطّلعاً على أدق أسرار الأدب وخفايا

التاريخ ، مماثلاً تلك النحلة الدؤوب

التي تستصفي أطيب ما في الزهرة المنوّرة ، لتريقه شهداً سائغاً ، لا أشهى ولا أحلى ، وتبني خلاياها من ذوب ما تجود به ، خلية ، خلية كما يبني شاكر مصطفى ويهندس كلماته ، كلمة، كلمة، أو مماثلا

تلك الفراشة التي شقت فيلجتها وخرجت منها ، باسطة جناحيها للنسيم العليل ، مترمّمة خطا شاكر مصطفى الذي يغزل مثلها كلماته الندية ، الطلية ، كلمة ، كلمة ، ويوشيها حرفاً ، حرفاً .

بلى هذا هو شاكر مصطفى كاتباً وناقداً من طرازٍ رفيعٍ ، في أدبنا العربي المعاصر .

بيد أنني أودُّ أن أشير ، هنا ، إلى جانبٍ من خلقه الكريم ، وحرصه على وشائج الصداقة ورعايتها والحفاظ عليها ، فقد كان شاكر مصطفى صديقاً حميماً وزميلاً غالياً لي بوزارة الخارجية التي كسبته سفيراً للكلمة العربية الأصيلة ، قبل أن يكون سفيراً

للدبلوماسية الواعية ، الناجحة . وكان شاكر إلى هذا كله ، إنساناً وفياً ، لا حدود لتضحياته التي كان يبذلها لأصدقائه من دون منّة ، في لهفة صادقة صافية ، حسبي أن أشير هنا إلى مرافقته لصديقه العزيز المرحوم

مظهر وصفي رحمه الله إلى سويسرا، طلباً للعلاج ، بعد أن أصيب دماغه بمرضٍ عضالٍ ولزمه هناك إلى جانب سريره كأنه أمٌّ رؤوم حتى انتقل مظهر إلى جوار ربه .

رحم الله شاكر مصطفى وأسبغ عليه شآبيب رحمته وأجزل ثوابه على ما بذل وقدّم للأجيال العربية من مؤلفاتٍ قيمةٍ رائعةٍ ، مقدماً تعزيتي الخالصة لأسرته وأصدقائه ومحبي أدبه الفذ الخالد .

إنه ليتراءى لي ، الآن ، كبروميتي ، سارق النار في الأسطورة اليونانية ، فقد عرف كيف يستلّ من جمرة التاريخ جذوتها المضرمة ، ليريقها في رئات حروفه ، كما عرف كيف

يمتح من أدبه السخيّ الفاظه الآسرة ، ليوشي بها تاريخنا القديم والمعاصر ، حين تفرّغ له واستجتلاه قلمه اللبق الصناع ، ليضحي قريباً ، دانياً من قلبه المحب ، النابض طهراً وإخلاصاً ووفاء .

رائد الجيل

تاجٌ من الغار مضفورٌ لمن كتبا
سفراً بخدِّ الثريا وامتطى الشهبا
وشاد خلف حدود الشمس مملكةً
من الجمال ووشَّى خدَّها التربا
وأطعم الشام من أحنائه مزقاً
وشكها فوق صدر المنتهى نصبا
من فجر مولده عاشتْ بمهجته
تحتل من عينه الأحلام والهدبا
حنا عليها فأولته محبتها
وبادلته الرضى والشوق والعجبا
وقاسمته تباريح الهوى زمناً
تقتات من أصغريه النبض والعصبا

* * *

إلفان ضمَّا وراء الصدر ودهما
وأصدق الحب ما في الخافق احتجبا
فهو الذي عاش يا فيحاء منتقلاً
وأنت في قلبه لو غاب واغتربا

فكلما شدّه عن داره سفرٌ
طواك بين جناحيه هوىً وصبا
جراحه لم تنلْ من كبره وطراً
ولا شكا حرَّها المشبوبَ والتعبا
لكنه إنْ نأى عن وجه حلوته
يوماً يقطّعه حرُّ النوى إربا
ولام مَنْ لا يرى أن الهوى قدرٌ
للعاشقين وفي أعمارهم كتبا

* * *

يا سيدي لست أدري إنْ شكا قلمي
عبء المعاني إذا لم أوفِ ما وجبا
ولست أدري إذا حاورتُ قافيتي
بأي لونٍ أصبُّ الشعرَ والأدبا
حسب القوافي وقد جاءتك عاطرةً
تعيد من أمسها الميمون ما ذهبا
فأنت رائدُ أجيالٍ وما برحتْ
أقلامنا تتشهّى روضك الخصبا
حروفك الخضر مسكٌ في دفاترنا
منها نعبُّ إذا كل الشذا نضبا
فكنت أبلغَ من وشّى البيان ندىً
وداعب الحرف والأوزان والخطبا

وصبَّ في الكأس من سحر الكلام طلى
تناثرت في زوايا خدها حببا
قاسمتنا في دروب الشعر محنتنا
أخاً كريماً وعند النائبات أبا

* * *

يا فارساً عاش للإبداع ممتطياً
ظهر النجوم وأحلى حورها خطبا
فما ارتضى غيرَ قرنِ الشمس ملعبه
يوم الوغى وأميرَ المنتدى لقبا
تظل موردَ أهل الفكر إن ظمئوا
يا نعم ما شربوا من منبعٍ عذبا
مواسمٌ من كروم الراح طاف بها
صادٍ ليقطفَ عن أغصانها العنبا
ودوحةٌ من رياضٍ جلَّ خالقها
يضوع منها أريجٌ أسكر الحقبا
أحلى الورود التي غطتْ بفتنتها
كلَّ المروج ترش العطر والنشبا
جمعْتَها بوشاحٍ ضمَّ أجملَها
وشَّتْ به الشامُ تيهاً ثوبَها القشبا

* * *

يا سيدي وهموم العرب تثقلنا

باتتْ تصبُّ علي أكبادنا اللهبا

تفرقوا شيعاً طاشتْ وما تركوا

في حومة المجد إلا الإسم والنسبا

تربعوا في القصور الفيح واقتنصوا

ما أبدع الله من نعمى وما وهبا

وأصبحوا خلف تاريخ الحروب دمىً

مشلولةً لا ترى في حربها سببا

تواكلوا واكتفوا بالوعد وانقسموا

فضيعوا القدسَ والأغوار والنقبا

وباركوا سطوة الباغي وما فعلتْ

وقدموا النار المعتدي حطبا

أغضوا على الذل غفراناً لمغتصبٍ

وسوغوا الأمر للطاغي وما نهبا

تجاهلوا عزة الماضي وغرَّته

فكفنوه وعاشوا الحاضر الخربا

فواحدُكم تغنى في بطولته

تهتز كلُّ عروشِ الأرض لو غضبا

وواحدٌ راح يزهو في عباءته

إلا لصيد الغواني الخود ما وثبا

وآخرون تراموا عند من قتلوا

أهل الكتاب وباسوا كفَّ من ضربا

ناموا على الضيم إرضاءً لقادتهم
وسامحوا الغاصب المحتلَ ما سلبا
باعوا بلا خجلٍ سيف الإمام كما
باعوا الضمير وسلّوا الصارم الخشبا
صرنا على مذبح التاريخ أضحيةً
للمارقين وفي كفِّ العدا العبا
كأننا لم نكنْ يوماً ملوكَ وغىً
وللجهاد وعشاق الردى أربا
من طينة المصطفى أجدادنا جبلوا
على النضال وكانوا القدوة العجبا
ونحن من طينةٍ ضاعتْ معالمُها
من قال يعرف ما أسرارها كذبا
طاحتْ بأمجادنا جهلاً زعامتُنا
وبادلتْ بعضها التأنيب والعتبا
وخلّفوا الوحدة الكبرى ممزقةً
بلا حماةٍ وبيت الله مغتصبا
فَمَنْ يُعيدُ لنا يوماً كرامتنا
والقيدُ والسيفُ من أعناقنا اقتربا
لولا البقيةُ من أطفالنا نفرتْ
ما التام جرحٌ ولا رجعُ الأنين خبا

فليغفر المجدُ والتاريخُ هفوتنا

وليرحم الله يوم المحنةِ العربا

* * *

يا رائد الجيل حورُ الشام ما حملت

فوق الترائب إلاّ رسم من غلبا

وكان حارسها يوم الخطوب إذا

نادى المنادي فلبَّى وانتشى طربا

في عهده أصبحتْ للمجد عاصمةً

وللنضال وأسباب العلى قطبا

فهي التي كتبت للدهر ملحمةً

وقدمتْ كل جودٍ جاوز السحبا

وهي التي أهدت الدنيا حضارتها

وكلحلت بالهدى الأسفار والكتبا

لولا أصالتُها ضاعتْ عروبتُنا

وفرَّ من ضعفنا التاريخ وارتعبا

ردتْ لأمتها الثكلى رجولتها

وهيأت للكماةِ المنزلَ الرحبا

ما راعها الدهرُ يوماً في منازلةٍ

فكل غازٍ علي أبوابها صُلبا

عاشت على جبهة الاجيال أمنيةً

للطامحينَ وحصناً يدفع النوبا

يا رائد الجيل لن تنسى الشآم فتىً
ومغرماً في هواها صادقاً حدبا
تظلُّ تذكر مَن أغنى مفاتنها
نعمى الجمال ومن أجفانها شربا
فكنتَ وردة فلٍ في ضفائرها
وفوق جيد الغواني الماس والذهبا
وعشتَ فوق الشفاه السمر أغنيةً
سكرانةَ اللحن تُغري العودَ والقصبا
فليحفظ المجدُ من تبقى شمائله
ذخراً وعوناً تمدُّ الشعر والأدبا
ولو طوتك الليالي وهي غاشمةٌ
تبقى على الجفن حلماً مترفاً رطبا
أنت المخلَّدُ في عين الزمان إذا..
عدوا الكماة وعدو السادة النجبا
فللكريم على مرِّ العصور يدٌ
فاقتْ فضائلها التيجانَ والرتبا
والنسر حتى ولو شاخت قوادمه
إلا متون الرواسي الشمِّ ما ركبا

في مكتبة الأسد بتاريخ ١٩٩٧/٩/٩
تأبين المرحوم الدكتور شاكر مصطفى

أديبٌ كبير ومؤرّخ عملاق

نص المقال الذي ورد في كتاب عبقريات للأستاذ الأديب عبد الغني العطري وكان تعريفاً بالفقيد مضافاً إليه تعليقات الأستاذ عبد الغني العطري.

بقلم:

عبد الغني العطري

نشأ في بيئة شعبية فقيرة.

كان يحلم بأن يخلف أباه، ويرث في المستقبل دكانه الصغيرة المتواضعة، ويصبح بقالاً مثله.

ولكن القدر شاء، غير ما أراده الطفل البائس.

الطفل شاكر، كان ذكياً، فإذا به فجأة في مقدمة الفائزين بالشهادة الابتدائية.

وتبدل الطموح المتواضع.. وحلّت مكانه طموحات بعيدة، وأحلام مجنحة، وأهداف تداعب النجوم.

سهر، وتعب، وناضل، فنال الشهادة تلو الشهادة. واحتل مناصب رفيعة. وكتب، وألّف، وأبدع، وتجاوزت مؤلفاته العشرين. وكثير منها يتألف من مجموعة مجلدات، وطبع كثير منها مرات.

وبات شاكر مصطفى أديباً كبيراً، وباحثاً قل نظيره، ومؤرخاً لا يجارى.

ثم جاوز شاكر الخامسة والسبعين ـ مدّ الله في عمره ـ وهو ما يزال يثري المكتبة العربية بآثاره القيمة، وإبداعه الرائع.

* **سيرة في كلمات**(1)

هذا الذي تكرِّمه بذكره في كتابك، ليس أكثر من واحد من هذا الناس الكثير. إنه إنسان دمشقي المولد والهوى. ومعرفتي به تذهب في الماضي العتيق - إذا اسعفتني الذاكرة - إلى ٧٥ عاماً مضت، يوم كان طفلاً يحبو ولا يعرف الثدي، من نجوم الفلك. ولقد نشأ في أسرة دون المتوسطة. فأبوه بقال، كان يرجو أن يرث ابنه دكانه الصغيرة. فيما كان أعمامه مزارعين يسكنون بستاناً غربي دمشق. ولعله كان يحلم بينهم بالتقاط القمر واللحاق بالسنونو الخاطف!

كان الحدث الأهم في حياته يوم نال الشهادة الابتدائية. لقد وضع الصحيفة التي نشرت اسمه في إطار من الورق وعلقها على الحائط. فرحته بها لم تعدلها نواله لأي شهادة بعدها. ثم ما تدري كيف عشق القراءة والفنون والأدب في المدرسة الثانوية، فأقام مكتبة له من ثلاثة كتب تراثية في صندوق خشبي، فهو على الطرب للشعر تارة، وعلى محاولات الرسم تارة، وعلى الإنصات لراديو واسطوانات الجيران تارة ثالثة!..

كان ذلك في عقد الثلاثينات. وكان أبوه شديد القسوة، يضربه إذا رآه يقرأ لاهياً عن الدكان. ولكنه ظل يقرأ في السر كل ما يقع تحت يديه، سواء كان مجلة أو جريدة أو كتاباً في نهم الميت من الجوع! في الصفوف الثانوية الأخيرة حاول الشعر، ولكنه لم يرض عما جاءه منه. وحاول ممارسة الرسم فلم يسعفه ضيق وقته. بل حاول الموسيقى ولكنه لم يكن يملك ثم آلة منها. القراءة كانت أرخص!

في الفترة نفسها كان جو المدرسة الثانوية (وهي إحدى ثانويتين اثنتين فقط في سورية) معبأ ضد الاحتلال الفرنسي. فغرق صاحبنا في العراك ضده. كان وهو طفل يرى كيف يموِّن أبوه الثوار بالرصاص في رزم الخبز. أما هو فقد كان غالباً ما يعود إلي البيت مشقق الجيوب من حمل الحجارة يرمي بها مع رفاقه الفتيان، الضباط الفرنسيين، ذوي القبعات الزرقاء، وطرابيش الجنود السنغال

الحمراء، وكم دهش حين رأى بعض هؤلاء يدخلون الجامع ليؤدوا الصلاة، بعيون حمراءكالكرز! منذ تلك الأيام لم يفارقه عشق السياسة إلى اليوم. وكان هذا هو قدره الأول.

في نهاية الثلاثينياأنهى الدراسة الثانوية. ولولا مصادفة هبطت عليه من السماء لكان اليوم شرطياً أو شيخاً في أحد الجوامع، أو في أحسن الأحوال معلم قرية! كذلك كان يريد أبوه. ولكنه في المدرسة الثانوية لقي بعض الأساتذة الذين دفعوه دفعاً في اتجاه آخر هو انتظار مسابقة حكومية للفوز ببعثة! وجاءت المسابقة في الأدب. وكان الأول فيها، فتقرر إرساله إلى مصر. كان الحرب العالمية الثانية قد أغلقت جميع الأبواب إلا باب مصر. وكانت بعثته ثاني بعثة إليها. وخشيته من أن يعود مدرساً للنحو ـ وهو لا يطيقه ـ جعلته يغير اختصاصه إلي التاريخ غير آسف. ونال الإجازة به من جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٥. وكان هذا قدره الثاني.

وقرر أستاذه الانكليزي في التاريخ الحديث إرساله إلى جامعة اكسفورد، ولكن حكومته رفضت، وأرسلته مدرساً إلى ثانوية درعا بحوران! وعمل لذلك في التدريس في ثانويات دمشق. ثم أصبح مديراً لمعارف حوران. ثم مديراً لدار المعلمين. ثم أميناً عاماً لجامعة دمشق. كل ذلك فيما بين سنتي ١٩٤٥-١٩٥٥. كان هذا قدره الثالث. لكنه خلال هذه الفترة كان يخوض العمل السياسي باليمين وبالشمال، كاتباً ومعارضاً وذا رأي في الصراع القومي ومشاركة واضحة. كان يتصور أنه مع قبضة من رفاقه يستطيع أن يقوِّم المعوج. وما أكثر ما كانت سذاجته وهو في هذا البحران ذي الحمأ المسنون وجنيات الأعماق!

حين أرسل مستشاراً ثقافياً إلى مصر سنة ١٩٥٦ دخل في بحر الدبلوماسية وغرق فيه حتى الأذقان. حسب أنه انتقل إلى جو أنقى وأكثر قابلية لخدمة بلاده. وكان هذا قدره الرابع. وقد تنقل فيه قائماً بالأعمال في السودان ثم

وزيراً مفوضاً في بوغوتا عاصمة (كولومبيا) أيام الوحدة. ثم قنصلاً عاماً في سان باولو بالبرازيل وكان كل ما كسبه في هذا القدر ما بين ١٩٥٦ و١٩٦٣ أنه أتقن اللغتين الاسبانية والبرتغالية، الى اللغتين الفرنسية والانكليزية اللتين يعرف. ولكنه كره السلك الدبلوماسي كله! رآه نفاقاً مهذباً وضياع وقت. فاختار العودة لبلاده فصار مديراً عاماً للشؤون السياسية في وزارة الخارجية السورية. وأميناً عاماً بالوكالة. الى أن اختير بالرغم عنه وزيراً للإعلام!

وانقطع به الحبل بعد ذلك.. طغى العسكر علي الحكم بانقلاب. واتجهت السياسة نحو التطرف الاشتراكي. فهرب بجلده منذ اليوم الأول. وتمزقت قبضة الرفاق ما بين مصر ولبنان والأردن والعراق. ولم يكن بعد قد قرر مصيره حين أتته الدعوة إلى الكويت فجاءها وليس في يده ورقة باسمه!

كان ذلك في أغسطس «آب» سنة ١٩٦٦ ولم تكن جامعة الكويت قد افتتحت بعد أبوابها، فشارك في التدريس بها مع الأساتذة الـ ٣١ الذين افتتحوا تلك الأبواب. وكان هذا هو قدره الأخير. بقي يدرس فيها التاريخ العربي الإسلامي خمساً وعشرين سنة مرت كأنها حلم ليلة صيف!

وإذا كان قد نال خلال ذلك الدكتوراة من جامعة جنيف، فقد نال باللجوء الى الكويت ما هو أهم وأسمى. نال ما كان يتمنى من الانصراف للعلم. ونال الثقة والأمل بالمستقبل في طلابه الأوفياء. أخلص لهم وأخلصوا له. ما شعر يوماً إلا بأنه أخ كبير لهم لا أستاذ. ولعلهم كانوا يبادلونه ـ كما يتصور ـ هذا الشعور نفسه. آمن خلال ذلك أن العلم لا السياسة هو الضمان للمستقبل العربي. وكان يرى في عيون طلابه هذا المستقبل. وفيما كان العمل السياسي رجالاً وحكاماً ومناورات، يبتعد عن إشغال جمجمته. ويصغر على البعد ثم يصغر. كان الانصراف للعلم يصبح رسالته وهاجسه، ويمنحه الاطمئنان الروحي الذي يشتهي. على أنه كان يشعر على الدوام

بضآلة ما يعلم. فإذا هو جوع كله، إلى كل معرفة. لكنه يدرك اليوم وهو يستعرض حياته كلها. وينظر الى مكتبته التي قد تصل إلى ١٥ ألف مجلد مدى جهله! ومعنى الحكمة البالغة في قوله تعالى (وفوق كل ذي علم عليم) ويدرك أنه (لا يعلم من بعد علم شيئاً) وإنه ليؤمن كما قال بيكون، وهو يفارق الوجود، بأنه كان مجرد طفل يغرف من ماء المحيط بصدفة!

على أنه لا ينسى أنه كسب في مشواره الحياتي كنزين يعتز بهما، ولعلهما سبب سعادته في هذه الدنيا:

- مودة أحبابه وأصدقائه وتقديرهم النبيل الذي يلقونه به حيث كان.

- ما يرجو أن يكون لتراثه العلمي والفكري - على ضآلته - من نفع لمن يأتون بعده.

لولا هذين الكنزين أكانت لحياته أي قيمة؟

*** مستدركات**

أبصر الطفل شاكر النور بدمشق في العام ١٩٢١.

والده هو المرحوم أحمد، أكمل تحصيله الابتدائي بدمشق، وفاز بالابتدائية في العام ١٩٣١.

وفاز بالشهادة الثانوية عام ١٩٣٩.

كان من الفائزين في مسابقة علمية، أوفد نتيجتها للدراسة في مصر عام ١٩٤٣.

عُيّن في وزارة الخارجية، وأوفد إلى السودان، قائماً بالاعمال في عامي ٩٥٧ و٩٥٨.

نُقل وزيراً مفوضاً إلى بوغوتا عاصمة كولومبيا عام ٩٥٨ حتى العام ٩٦١.

عُيّن في البرازيل قنصلاً عاماً من تشرين الأول ١٩٦١ لغاية العام ١٩٦٣.

نقل بعد هذا إلى دمشق، وبات مديراً عاماً للشؤون السياسية في وزارة الخارجية.

في العام ١٩٦٥ اختير وزيراً للاعلام، لغاية ٢٣ شباط ١٩٦٦.

فاز بشهادة الدكتوراة في التاريخ عام ١٩٧٠ وكانت اطروحته بالفرنسية حول «مؤرخو العصر السلجوقي الأيوبي».

* **كتبه وآثاره**

١ ـ معالم الحضارات ـ طبع عام ١٩٥٠.

٢ ـ العالم الحديث ـ طبع عام ١٩٥٠.

٣ ـ بيني وبينك ـ طبع عام ١٩٥٤.

٤ ـ حضارة الطين ـ طبع عام ١٩٥٤.

٥ ـ القصة في سورية ـ طبع عام ١٩٥٥.

٦ ـ ماريانا ـ مسرحية غارسيا لوركا (ترجمة عن الاسبانية) ١٩٦١.

٧ ـ مؤرخو العصر السلجوقي الأيوبي ـ مجلدان بالفرنسية ١٩٧٠.

٨ ـ التاريخ العربي والمؤرخون (٦ مجلدات) ١٩٨٠.

٩ ـ فلسطين بين العهدين الفاطمي والأيوبي ١٩٨٥.

١٠ ـ دولة بني العباس (مجلدان) ط٢ ١٩٧٣ ـ ١٩٨٦.

١١ ـ الأندلس في التاريخ ١٩٩٢.

١٢ ـ موسوعة الدول الإسلامية ورجالها (٤ مجلدات) ط٢ ١٩٩٤.

١٣ ـ سلسلة أوراق من التاريخ (١٧ كتاباً) ١٩٩٥.

١٤ ـ المدن في الإسلام (مجلدان) ط٢ ـ١٩٨٨ـ١٩٩٧.

١٥ ـ دراسات في التاريخ الإسلامي ١٩٩٧.

١٦ ـ مدينة للعلم (آل قدامة والصالحية) ١٩٩٧.

١٧ ـ عودة صلاح الدين ١٩٩٧.

وثمة كتب اخرى، لم تسعف ذاكرة مؤلفها الكبير بذكرها لنا!

أما مقالاته الكثيرة، فلا تزال موزعة بين ثنايا العديد من الصحف والمجلات.

* * *

---

* **هامش**

(١) عندما رغبنا إلى الأخ الصديق، الدكتور شاكر مصطفى، أن يدلي إلينا بمعلومات حول مراحل حياته، أبى خلقه ونبله، إلا أن يُطرفنا بالترجمة الخطية لحياته. وقد جاءت هذه الترجمة، قطعة من أدبه الرفيع. غير أن أخانا الغالي، سها عن تسجيل أمور، نرى من المهم الإشارة إليها. من أجل ذلك رأينا أن نستدركها، بعدما تفضل به بقلمه.

عبقري الشام

فرشت لك الشام الغمام لتعبرا
وسعى إليك من الذرا ثلج الذُرا
سكنتك فاكتشف الوصال فصدرها
إلاّ على العشاق يبقى موعرا
هي كالقصيدة لا تحبّ وتشتهى
حتّى تذوبَ على المراشفِ سُكّرا
لقّتْ على خصرِ القصيدةِ شعرها
واستقدمتْ من كُلِّ دوحٍ قُبَّرا
سالتْ نسائمُ غُوطتيها بلسماً
وجرتْ جداولُ ربوتيها كوثرا
جاءتكَ ناعسة الجفون تجرُّ من
تيهٍ على كلِّ الملاعبِ مئزرا
ومشتْ وقد صبغَ الحياءُ خدودها
ورداً إلى ناديكَ تلتمسُ القِرى
هي سيرةٌ للمجدِ لو لم تَروها
لم يَحسدِ المتقدِّمُ المتأخِّرا
كم من جميلٍ في خيالِ بثينةٍ
سبقتْ بهِ الشَّامُ العقيقَ وعرعَرا
ألأنّها الشَّامُ التي ما مثلُها
كنتَ ابنَ ساعدةٍ وكانتْ مِنْبرا؟
خفَقتْ دمشقُ إلى الدِّمشقِّي الذي
صاغتْ أناملُه الحجارةَ مرمرا
أمحاورَ التّاريخ تنشرُ ما طوى
وتبينُ ما أخفى وتجمعُ ما ذرا
نفذتْ رؤاكَ إلى خفيٍّ رموزهِ
فوصلتَ بينَ الأمسِ واليوم العُرى

عتقتَ خمرَ كرومهِ وأدرتَها
صرفاً فكيفَ تريدُ ألاّ نسكرا ؟

يكفيك من ترفِ الخلودِ بدائعٌ
ألبستهنَّ الغُوطتين ودُمّرا

يا عبقريَّ الشَّامِ ، واعذرها إذا
ذابت ضلوعُ الغوطتينِ تذكُّرا

خُلقتْ ألوفاً كلَّما ذكرتْ بكتْ
فالدَّمع حبّاتُ القلوبِ تحدُّرا

ما عبقرٌ إلاّ دمشقَ وحيثما
قلبتُ ناظرتيَّ ألمحُ عبقرا

سالت يداكَ كأنما بردى جرى
والغوطتانِ توزِّعانِ العنبرا

أنصفتَ قومكَ حينَ صُغْتَ تراثهمْ
كالجوهريِّ حنا ليرصفُ جوهرا

تأبى على الفصحى وأنت ابن لها
ألاّ تكونَ أميرةَ بينَ الورى

إنَّ البلاغة لا تكونُ فريدةً
إلاّ إذا عذُبَ الحديثُ مكرّرا

فاطوِ الجناحَ فرُبَّ حلمٍ شاردٍ
لم ترضَهُ أو كانَ دهرُكَ محجرا

قد يصمتُ النَّسرُ المحلقُ في الذُّرى
كي لا يثيرَ بغاثها المستنسرا

عينُ المؤرِّخ أصغراه وعقله
وعلى المؤرِّخ أن يرى ما لا يُرى

أنا ضدَّ تحصينِ النُّصوصِ فربَّما
كانَ المحصَّنُ ناقصاً ومزوَّرا

لم ينجُ من خُدعِ الخيالِ مؤرِّخ
لو كانَ فيهِ الفيلسوفَ الأكبرا

شطَّ الخيالُ بمن مضوا حتى لقد
زعموا بأنَّ الجِنَّ شادتْ تدمُرا

نسبوا لآدمَ في بنيهِ مراثياً
وتمحَّلوا قصصاً لعادَ وحِميرا

زعمـوا بـأنَّ الغـولَ تنجِبُ صبيـة
وبــأنَّ للحيتــان شــعراً أشــقرا

كــم دوَّنــوا نبــأ ســقيماً مفتــرىً
ولكــم تشــاغلنا بــذاك المفتــرى

إنْ لــم يكــنْ ورعَ الســَّريرةِ مخبِــرٌ
فمــن البليَّــةِ أن تصــدِّقَ مخبــرا

وأرى التَّعصُّــبَ للقــديم مضــلَّة
وعلــى ســليم العقــل أن يتخيَّــرا

وإذا الحداثــةُ لــم تكــنْ محميَّــة
مــن هلســواتِ العصــرِ كانتْ أخطــرا

مــا أخطــر التَّاريــخَ تحسَــبُ أنَّــهُ
صــدقٌ إذا كــانَ المنــافِــقَ مصــدرا

يــا عبقــريَّ الشَّــام هــذي أمَّــة
عــددَ الرمــالِ فمــا أقــلَّ وأكثــرا

تبكــي علــى أطــلالِ ماضيهــا وهــل
مــن حــاضــرٍ إلاَّ وصــارَ مدمَّــرا؟

صــاغــوا لهــا باســم التطرُّفِ قيدهــا
واســتحلبوهــا فــي الغنيمــةِ أشــطرا

أرِّخْ لهــذا الشَّــرق طــارتْ فوقَــهُ
ســودُ الطّيورِ وقــد تــكــدَّسَ متجــرا

واكتــب عــن الإرهــابِ فــي مدنيَّــةٍ
تســتأجــرُ الأمّــيَّ والمســتهترا

هــل يــعــرفُ التّــاريخُ أنّــا أمَّــة
صــاغتْ مــن الضلع المكسَّــرِ خنجــرا؟

هــل يعــرفُ التَّاريخُ أنَّ القــدس فــي
خــطــرٍ وأنّ الــغــزو داس المشــعــرا؟

هــل يــعــرفُ التــاريــخَ أنَّ قريظــة
وجميــع مــن معهــا تحاصــرُ خيبــرا ؟

هــل يــعــرفُ التَّــاريــخَ أنَّ مدائنــا
بيعتْ وصودرتِ النســائمُ فــي القــرى؟

يلقــى الجنــوبَ بكــلِّ يــومٍ عارضــاً
بقــذائــفِ المــوتِ المحتَّــمِ ممطــرا

صـــــارَ الفلســـطينيُّ نـــارَ جهنَّـــمٍ
لكنَّـــها لا تحـــرقُ المســـتعمرا
صـــــارَ الفلســـطينيُّ إخـــوةَ يوســـفٍ
وعزيـــزَ مصـــرَ ويوســـفٌ منهم بـــرا

صـــــارَ الفلســـطينيُّ نـــاقةُ صالـــح
كـــلٌّ يريـــدُ لهـــا الصُّراخَ لتعفـــرا
ذبحـــتِ أريـــحا والخليـــل ولم يـــزلْ
ســـلمٌ تبـــاعُ بـــهِ الشُّعوبُ وتشـــترى
لهـــواء هـــذا الشّـــرقِ طعـــم بنفســـج
وتوهّـــج المســـك الفتيـــتِ على الثّـــرى
شـــرقٌ تنـــامُ الشّـــمس فـــي أحضانـــهِ
وتفيـــقُ أجمـــل مـــا تكـــونُ لتســـهرا
مـــا شـــادَ هـــذا الشّـــرقَ إلاّ أهلـــهُ
ولطالمـــا شـــربَ النّميـــرَ وأســـأرا
فتـــحَ النّوافـــذَ للرّيـــاح فأقبلـــتْ
تتـــرى عـــفّ غـــداةَ كـــان الأقـــدرا

مـــا بـــاعَ يومـــاً للغـــزاةِ ثيابَـــهُ
لكـــنْ تـــأثّرَ بـــالشّـــعوبِ وأثّـــرا
لـــو لـــم يهبـــهُ الشّـــرقَ ريش جناحـــهِ
مـــا أصبـــحَ الأســـكندرُ الاســـكندرا
أتـــراهُ أســـلم للرّيـــاح شـــراعـــهُ
فاســـتنوقَ الجمـــلُ الهزيـــلُ وجرجـــرا؟
أنـــا لســـتُ أفتـــي باغتيـــال حمامـــةٍ
هبطـــت بـــلا إذنٍ لتنهـــبَ بيـــدرا
لـــو أنهـــا كنتِ الصحـــارى طاويـــاً
فـــي البيـــدِ مـــا ألفَ الرّمـــالَ الشّـــنفرى
أنـــا لا ألـــومَ النّـــاسَ كم من صـــاحبٍ
ضحكـــت لـــه أيّـــامـه فتغيّـــرا
مـــا هـــمَّ إن قلـــبَ الزّمـــانُ مجنّـــهُ
أنـــا مـــا ربحـــتُ مـــن الحياة لأخســـرا

حاولتُ أن أجدَ الطريقَ إلى غدي
فرأيتهُ وعر المسالكِ مقفرا
صغرت يدي من كلِّ شيءٍ عذرها
أني أبيتُ لها الرَّخيص الموسرا
ولكانَ قطعُ يدي أحبَّ إليَّ من
منٍّ يعودُ به العطاءُ مكدرًّا
عتبي على الزَّمن الذي استسقيتهُ
ألاَّ يشير إلى الغمام ليمطرا
خلعَ الزَّمانُ على بنيهِ صفاته
فغدوا أعقَّ من الزَّمان وأغدرا
نتبادلُ الطَّعنات لا ندري لها
سبباً ويبتلعُ الصَّغيرُ الأصغرا
في كلِّ ناحيةٍ يسوؤك أحمقٌ
وكأنَّهُ لِصٌّ يخاتلُ سمَّرا

وتراهُ يرفعُ للمجرةِ أنفه
حتى ولو بالوحل كان معفَّرا
وكذا هي الدُّنيا تحاربُ معشراً
حيناً وتغري بالزِّيادةِ معشرا
قولوا لغيري لستُ ممنْ حاولوا
ملكاً ولكن هل أموتُ لأعذرا؟
قولوا لمن لعبَ الغرورُ برأسهِ
إن كنت كسرى كان غيركَ قيصرا
أو كان ذنبُ الشِّعر أني صنته
عن عابرين لكي يظلَّ مطهَّرا؟
كلُّ إنتماءٍ لا يكونُ مبرّأً
من كلِّ شائبةٍ أنا منه برا
ولأنَّها سالتْ وفاءً للذُّرى
تأبى جراحَ النَّسر أن تتخثرا
حسبي وإن لم يرعَ كرمي قاطفٌ
ثمراتهِ أن ظلَّ غصني مثمرا
وغداً إذا عجمَ الزَّمانُ قنيَّهُ
كنَّا أحقَّ بمفرقيهِ وأجدرا

يـا عبقـريٌّ الشّـام تُلبسُ جيدهـا
عِقـداً بـغارِ الكبريـاءِ مضفَّـرا
أطعمتهـا ضـوءَ العيـون فأشـفقت
ولـو أنّهـا سـألت وهبـتَ الأكثـرا
الشّـامُ سـيدةُ العصـور وحسـبها
أن أطلعـت للنائبـاتِ غضنفـرا
تصحـو الطيـور علـى صهيـلِ خيولهـا
العـاديـاتِ بـكلِّ سـاح ضمَّـرا
المسـجدُ الأمـويُّ رمـزُ شـموخها
إن قـالَ : حـيّ على الجهـادِ وكبّـرا

أرأيـت مثـل الشّـامَ غابـاً صامـداً
لـو تركـعُ الدُّنيـا وليثـاً مخـدرا؟
الأصيـدُ العربـيَّ هـزَّ قناتـهُ
فكأنّمـا عـاد الـزّمانُ القهقهـرى

وإذا خيـولُ أميَّـةٍ مسـروجةٌ
والعسـكرُ الجـرّارُ يزحم عسـكرا
إن كـانَ بالسّـلمِ الكـريم مبشـراً
أو كـانَ بالحـربِ العوانِ محـذّرا
يمشـي برابعـةِ النّهـارِ لسـلمهِ
لا طـالبـاً جـدةً ولا مسـتنصرا
ثبـتٌ ولـو أنَّ الجبـال تصدَّعـت
صُلـبٌ ولـو عـزمُ الزّمـانِ تكسّـرا
يرعـى حقـوقَ الجـار لا قلقـاً ولا
جزعـاً ويحمـي الجـارَ لا متمحـورا
تـلقى بـه الفـاروقَ حكمـاً عـادلاً
وتـرى صـلاح الدّيـن فيـه وحيـدرا
أسَـدُ الشّـرى لا يسـتباحُ عرينـهُ
وبنـوه كـلُّ بنيـهِ أسـادُ الشّـرى

كلمة الدكتور شاكر مصطفى

هذه الكلمة أعدّها د. شاكر مصطفى رحمه الله ليلقيها في حفل تكريمه الذي حُدد موعده بتاريخ ١٦/٨/١٩٩٧ إلا أن المنية وافته بتاريخ ٣١/٧/١٩٩٧.

في حكايا الصين أن الإمبراطور لى هيو أراد منح وزيره الذي خدمه خمسين سنة جائزة هي أن يحمل لقب «العقل الأسمى» ورجاه الوزير أن يؤجل اللقب سنة واحدة ليتحرى بين الناس استحقاقه لهذا اللقب. ووافق الإمبراطور لكن لم تمضي ثلاثة أيام حتى عاد الوزير منهكاً يرجو إمبرطوره إعفاءه من هذا اللقب الفضفاض ومن أي لقب آخر قال:

ـ سيدي! لا أستحق أي لقب!. ليس للحقيقة وجه واحد، ولقد تحققت ظلمي بعيني. حكمت بإعدام أناس فإذا بي أحكم على أطفالهم بالموت جوعاً. وحكمت بالسجن على أناس ولم أذق مرارة الوحدة في الظلام وحكمت بجلد الآلاف فلما ذقت السوط الأول من العقوبة ذهبت روحي بدراً. فأنا ظالم ظالم ومزيف بسمعتي. ولعل مراحمك تعفيني.

ـ إذن فماذا تريد أيها الوزير الكبير

ـ أن أكون خادماً للكهنة في معبد تسو البعيد!

فقال الامبراطور: عرفت ذلك

قبل أن تقوله، إنك لا تريد أن تكون العقل الأسمى ولا الإنسان الأسمى ولكن تريد أن تكون الإنسان الحر! فاذهب!

وهذه حكايتي معكم فقد تمنيت على أخي الأستاذ مدحت عكاش أن يتركني كويهناً في المعبد القصي لا يلمي عليه إلا الظباء والوحش وبنات الطير وبعض الزنابق والزهر والطيوف مع ظلمة الغاب! وأردتم أنتم أيها الأخوة والأحباب والتلامذة القدامى أن توقفوني موقفاً يغسلني بالخجل وما وقفته أبداً في حياتي قبل اليوم ولا ألجم لساني العي كما ألجم اليوم فأنا أتعثر بالحروف الأبجدية مع أني ابن المنابر منذ أربعين سنة.

كلمات الثناء التي نثرت كأزهار اللؤلؤ فوق رأسي وملأت البساط حولي وحولكم اعترف أنها كانت تخزني، تحزنني، تزيد من حناكتي. تكشف مدى قصر قامتي، وفي ذهني كل عملاق يقطف النجم ويزيد شبراً!.. واعترف لكم مخلصاً أني كنت عند كل كلمة أسمعها احسب أنها تعني غيري.. وحين انتبه أنها تعنيني أذوب في مقعدي ويغيب عني شيء إلا الدموع!.

لقد تمنيت لو رفقتم بي فسمحتم لجناح الرحمة أن ينخفض ثم ينخفض فلا يحلق مع النجم الدوار وأنا تراب وحمأ مسنون، أن يمنحني أجنحة النسور وأجنحتي لا يباهي بها عصفور!. وبضاعتي كلام في كلام، سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً!.

ثم إن أهل التكرم يعرفون سماهم منهم المبدعون والمتمردون على القطيع، والذين اخترقوا الحرف الى لغة أخرى ومن هددوا قلق الناس بصور أمتع للحياة وأصحاب الرؤى والقصص، واللحن يشيل ويحط، وأبحث عن يميني وشمالي عن نفر منهم فأجدهم كشظايا الزجاج المكسور، كالقيثارة من طريق، وكم تمنيت لو وجدت منهم عشرات اعرف وتعروفن لهم مني صهيل جيادهم في الميدان. ورنين أقلامهم الذهبية في الصدور. وكم شعرت بالأسى لأنهم لا يقاسموني اليوم أغصان الغار التي تنهال على مفرقي! وما كنت ليوماً بالمجلس لأتسلم دونهم وحدي الإكليل والصولجان! واسمع هذا

البيان الذي ينفسح مديحاً وهذه القوافي التي تنهل عطراً، لقد قال المعري منذ ألف سنة: ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراد». بل أني لا اعرف نفسي في هؤلاء. وحين انظر ورائي بعد هذه السنين وبعد تجعد الوجه وبطء اللسان فماذا أجد؟

صحيح أني كتبت وكتبت وكتبت. هذاالقلم ما هدأ منذ اربعين سنة، صار إصبعاً من أصابعي، رسم صورة أعماقي لك قارىء. الكلمة اعتراف قيد العهد. تثيرني الكلمة الجميلة. الكلمة التي تحمل طرفاً ملوناً من ألوان كن فيكن، قناطير من الورق أفنيت أطنان من حروف الأبجدية استخدمت. بنهم الجرذان ابتلعت الكتب نعتاً وهامشاً وتعليقاً. بساتين أهلي في كيوان عرفتني أشجارها واحدة واحدة، وعرفتني السواقي وأغصان التوت والخوخ وشلوخ الزنبق وكتابي تحت إبطي، فيما شاركت أيدي أهلي في التراب والشوك، وكانوا هم أنفسهم ظاهرة ترابية كجذور أدغال معتقة.. ثم عرفني حي الصالحية بإناسه الطيبين، ابن بقال كان أبوه يضربه اذا فاجأه يقرأ لكنه كان يقرأ في السر كل شيء، ويخفي ما يقرأ تحت أوراق الصر، ومضت الأيام فإذا به ينوء بعبء مكتبة تزيد على ١٢ ألف مجلد. فما الفرق بين هذا الشيخ وذلك الصبي، أليس بعض من بعض قريب؟ وهذا الركام الذي كتب فزاد على ثلاثة وخمسين كتاباً أليس معظمها إرضاء لوجدانه القلق وأن زعم أنها مما ينفع الناس ويمكث في الأرض. ويتساءل هذا الواقف أمامكم متلفماً بعباءة التكريم، لمن يكتب؟ ولماذا يكتب؟ ويحسب أن طبقاً من التشاؤم يلم به وهو يسأل.. فما زان الأدب برائعة خالدة، وهو المولع منذ الصغر بالجديد الجميل، ولا قدم عطاء يذكر مع اسمه.، ومعظم ما قدم فإنما هو غثاء احوى.. يذهب مع الريح..!

هل تراه كتب لنفسه أم للناس؟

إنه موقن أن الكتابة سفر داخل الفكر، أنها تعري الكاتب للناس، ولأني أدرك أن مافي ذاتي وشل قليل، فإني اعترف بأني ما أذعت أو سجلت أو ألقيت محاضرة إلا وخرجت وفي نفس من الندم ما

لا يعلمه إلا الله. واعترف أكثر من هذا أني ما سمعت أبداً حديثاً سجلته ولا جملة ألقيتها، على كثرة ما سجلت وألقيت، أتركها فوراً لغيرها وأقول لو غيرت هذا لكان أفضل ولو أضفت هذا لكان أحسن.. ولو ألغيت كل هذا اللغو لكان أكرم.. وأستر! ظاهر الأمر إني إنما أكتب للناس وأحاسب نفسي بمقاييسهم وأرائهم كأني في مسابقة دائمة مع العمر، على أني في ملكوت ذاتي سندباد الحرف الجميل، اذهب وراءه إلى آخر الأرض أركب البحار لتصيده وكل الأشرعة، أخوض المخاطر في الغوص لأظفر بلؤلؤة تنقص عقودي، أو جوهرة ليس كمثلها في متحفي.. الجديد في الأمر من الفكر في الخبر من الأدب من الحديث من الصور هو ما يشوقني من يجبي ويجرني من أنفي. أتمنى أن يكون حصادي جميعاً سنابل ذهبية وعقود زمرد، يا حسرة النجوم على مثلها.

ولكن هل هم الناس سيرونني إلى هذا؟

السؤال يلح علي دوماً فأنا منه في محاكمة دائمة، تجعلني ألقي إليكم باعترافي الأخير: منذ فترة طويلة أدركت أني أكتب لنفسي لمجرد دفع الكلمات كدفع الماء من ينبوع النافورة لتعود إليها. لذلك كان أحب كتاباتي إلي ما لا يتقيد بقضية، وأمتعه ما كسبته من الأسفار وكم من طرائف الحياة.. فيها ما ينتهي من الجنون والعقل والمضحك والمبكر، تنقلت من غابات الأمازون وأدغالها كالليل أو هي أظلم إلى وديان الراند الثلجية كأنما تعمرها الجن، الى القبائل التي تسكن أرصفة بومباي أكداساً إلى نخيل هونولولو البحر كالراقصات، إلى أسواق هونغ كونغ الزواغة، ومن سواحل سان باولو المنعمة بالذكريات إلى جبل السكر في الريودي جانيرو، ومن أمطار باريس السخية إلى نهر ميكونغ تتمرى به المعابد الذهبية، إلى ركض الموج في البوسفور لا تدري أين تركض.. إلى ميامي العارية وتخمة القصور الماسية فيها.. إلى ساندينا نمو وهدير الأروكانين.. إلا على شواطئها، رأيت الكثير واختزنت الكثير، كلها تسكن عيوني وتملأ عيوني كنوزاً أين

منهـا كنوز علي بابا والأربعين شريفاً (لالصاً). ولهذا اعترف ويبدو أنكم تنتزعون مني الاعـتراف بعد الآخـر.. إني إنما أكـتب لنفـسي لا لأحد.. على أني وأنا أكتب لنفسي أكتب عملياً للآخرين.. أكتب للجياع إلى كلمة حب، للمعذبين في الأرض لمن أمنوا بالإنسـان. ولمن أهلكت عيونهم الدياجير وللثائرين على الظلم، وأنا أشـعر بوجـودهم في مطاوي صـدري وعلى عـرائش أصابعي وفي مرآة نفسي. أرمقهم ويرمقونني على الصمت. كناسك يصلي في جموع من العباد خشع من حول معتكفه. وأنا أؤمن بالكلمة التي تحمل انفعالاً. تحمل شيئاً تقوله، ولو كان قشة مما يحمل الطير في منقاره ليبني عشاً! الكلمة الفارغة، الجافة، الخشبية يا حسرة قائلها، إنها تموت قبل أن يقرأها أحد!

أؤمن بالكلمـة التي تحـمل فكرة، تحـمل مـا يزيد من غنى نفسي، من ثروتي الحميمة ويهزها تغلغل في أدغالي وكهوفي وتسكن. تهز الثور الذي يشيل الأرض تحته على قرنه. أؤمن بالكلمة التي تحمل شحنة من الجمال، التي تمطر فرحاً وتمطر ثم تمطر، هل تعرفون وجع الأوراق التي تلقى وعليها من الكلام ما لم يقرأه أحد؟

هل أنا نادم على عـمري الذي ضاع وراء الكلمـة؟ وراء الحـرف الجـميل، وراء أبجـدية تغني وترقص؟ أبداً! هل ألوم نفسي لأني أدخلت النثر في الشعر والشعر في النثر خلطهما إلى غير انفصال؟ أبداً. أنا لا افرق بين كـتابة سطر وصواغة بيت شعر، كلاهما عمل فني تتلف وراءه الشرايين ويوجع القلب. أفـهم أن القـلائل هم الذين يعـترفون بالنثر الفني، بالنثر الذي يطوي في حـروفـه بسـاتين ونجوماً وأغماراً من اليـاسمين والنسرين وأبعاد العيـون، لكن الكثيرين هم أولئك المساكين الذين لا يدركـون مـا يكتب بعيـونهم الهلكى. ولكني واثق من أنه سيأتي اليوم الذي يقول فيـه الصديق لصديقه: اقرأ .. اقرأ هذا.. لقد كان صاحب هذا الكلام رفيقاً لنا وكان مـعنا يلعق الامنا وينظر للمستقبل!!..

اختيار ثوب الزفاف

بقلم:

مها سليمان

أنزلتها السيارة في أول السوق، نقدت السائق أجره وسارت بهدوء تجر أعوامها التي قاربت الستين. كانت طويلة القامة ممتلئة ذات شعر قصير مصبوغ بالحناء ذات اللون الأسود. تنفست ملىء رئتيها رغم الإزدحام الشديد دفعها إلى ذلك إحساسها بالحرية بعيداً عن منزلها ومشاكل أبنائها الثلاثة وزوجاتهم أخذت تنظر في الواجهات بعين خبيرة. لم يكن في مخيلتها في تلك اللحظات سوى مخلوق واحد هو ابنتها الوحيدة الشابة. فكانت تتساءل - ترى هل يناسبها هذا أم ذاك أجمل على كل حال فإن سبب مجيئها اليوم شيء آخر مختلف فقد كانت ترغب في شراء بعض أدوات صغيرة للمطبخ، اصطدمت برجل أمامها رغم محاولته أن يتلافى ذلك . حين نظرت إليه أطلقت آهة ترحيب ثم مدت يدها تسلم عليه لكنه كعادته. سلم ثم سحب يده بسرعة كبيرة، امتعضت في نفسها حركته هذه تتلف أعصابها في كل مرة تسلم فيها عليه يفعل ذلك لكأن الآخر الذي أمامه يريد أنيقتطع جزءاً من يده، كان صديقاً قديماً في مثل سنها سألته عن زوجته وأفراد أسرته ودعته للزيارة في فترة قريبة. تابعت طريقها. بقيت ممتعضة وكأنها خطت بإحدى قدميها فوق أرض أكثر انخفاضاً. عادت تتذكر أبناءها بغضب فقد تغيروا بعد زواجهم واستقلال كل

منهم بأسرته في منزل خاص به فلم يعد لديهم أي شعور بالاهتمام والعطف سواء نحوها أو نحو أبيهم. لذا عليهم ان يدفعوا ثمن ذلك فأحوالهم المادية جيدة. رغم أنها في غير حاجة إليهم لكن هكذا حتى يعوضوا عن قلة احترامهم وهي لا تني تستفز والدهم وتدفعه لمطالبتهم بدفع ما عليهم. مشت طويلاً. قبل أن تصل إلى آخر السوق استوقفها أحدهم. تأملته كان شاباً في نحو الثلاثين ذو سمرة خفيفة وشعر قصير.. فيما يرتدي قميصاً صيفياً ناعماً وبنطالاً م الجينز الفاتح. بدا في مجمله جذاباً ترك في نفسها أثراً طيباً فانبسطت أساريرها بعض الشيء واختفت التقطيبة الصارمة بين حاجبيها. كان مرتبكاً لكنه قال

ـ إذا سمحت لي إني مهندس اسمي ياسر أرغب بشراء ثوب زفاف لخطيبتي وقد وعدتهم في القرية أني سأشتريه بنفسي، أريدك أن تساعديني في اختياره. فكرت قليلاً ثم قالت أليس غريباً أن تفعل ذلك ففعلى صاحبة الثوب أن تقوم بقياسه فهو ليس ككل الأثواب ويبدو أنه كان مستعداً لمثل هذا السؤال فقال.. أعرف قياسها جيداً ويمكنني أن أصفه لك فقط أرغب أن تختاري لي موديلاً جميلاً. نظرت إليه وقد أحست بالإلفة نحوه كأحد أبنائها. هزت رأسها وهي تقول لو كانت ابنتي ترافقني لسهل الأمر علينا ترتدي ثوب الزفاف فنرى محاسنه وعيوبه. لكن لا بأس اتبعني إلى حيث تعرض فساتين العرائس. سار بجوارها سعيداً خجلاً، قالت لا بد أن أمك في غاية السعادة وتنتظر يوم زفافك بفارغ الصبر أليس كذلك، قال الشاب بخجل نعم الواقع أنها سعيدة سألت هل هي زميلة لك أم... قاطعها لا هي قريبتي.

ـ لمَ لمْ تأت والدتك أو والدتها لشرائه

ـ في الحقيقة إني أعمل في بلد عربي وقد حضرت إلى بلدتي قبل أيام وبما أنه لديَّ عمل ضروري هنا في المدينة فقد كلفوني بشرائه وإحضار بعض اللوازم الأخرى هذا كل ما في الأمر. نعم تحدث هذه الأمور كثيراً، قالت ذلك وهي تتوقف أمام إحدى الواجهات ثم انتقلت إلى واجهة أخرى وهكذا دخلت أخيراً أحد المحال الكبيرة أسرع صاحبه نحوهما لتقديم خدماته فابتدرته ـ أعتقد أننا سنجد ما نرغبه عندك لكن عليك أن تجري لنا تخفيضاً مجزياً ها أنا أقول لك ذلك منذ الآن.

أجابها البائع ـ على الرحب والسعة ثم مضى لاستقبال زبائن جدد.

عشرات الفساتين الجميلة المعروضة، تاهت أنظار الشاب وهو يحدق بها سمعها تسأله ـ حسناً والآن أخبرني كم يبلغ طول العروس. فكر للحظات ثم قال مبتسماً وقد احمر وجهه ـ الواقع

هي لست طويلة فقط مئة وأربعة وخمسون.

ـ وهل هي سمينة أم نحيلة. رد بسرعة إنها تقريباً ممتلئة

ـ آه ـ قطعت الصالة وهي تنظر إلى الفساتين إن ابنتي ياسمين طويلة ما كان وجودها سيفيد في شيء توقفت أمام ثوب ثم قالت بصوت مرتفع وكأنها تحدثه لو كانت طويلة لاخترت لها هذا انظر كم هو جميل لكن إن ياقته واسعة وخطيبتك قصيرة فلا بد أن عنقها قصير أيضاً واتساع الياقة سيظهر فيها هذا العيب يجب أن نختار لها ثوباً ياقته كرقم سبعة فهو سيزيد في طول الرقبة. أحس الشاب بالإمتعاض لكن لم يقل شيئاً. مضت تنظر في ثوب آخر ـ آه ما أجمل هذه الزخرفة التي تزين قسمه الأعلى إنه رائع لكنه سيجعلها أكثر بدانة. ازداد شحوب وجه ياسر تبعها وهي تمضي إلى ثوب آخر تأملته وطويلاً. كان يطل عليها رأس ابنتها بوجهها الجميل من فوق ياقة الثوب فيزداد هذا جمالاً في نظرها، إن زواج ابنتها هو حلم سعيد تنتظره بفارغ الصبر. بل إنها حرمتها من الدراسة في الجامعة وجعلتها تكتفي بدخول أحد المعاهد حتى لا يأخذ ذلك منها عدد آخر من السنين.

ما أجمل أن تحظى ابنتها بمثل هذا الشاب اللطيف ـ أخذت تردد لا نستطيع أن نشتري لها ثوب بأكمام طويلة ستبدو أكثر قصراً. لو كانت طويلة ونحيلة مثل ابنتي لبدت بهذا الثوب الرائع ذو الأكمام الطويلة كعارضات الأزياء.

أسقط في يد الشاب المسكين وخيل إليه أنه لن يجد فستاناً أبداً لا هنا ولا في كل أسواق المدينة يناسب عروسه. تأمل السدة. لم يكن يبدو عليها أنها تقصد شيئاً بكلامها هذا عن ابنتها. وجد نفسه يقول الأفضل أن تكون أكمامه طويلة فالعرس سيقام في القرية.. هكذا إذاً لا بأس.

فجأة رآها تتقدم نحو أحد الأثواب وهي تقول تعال انظر هذا ضالتنا ـ أكمام طويلة ياقة كالرقم سبعة والزخرفة على صدره ليست كثيفة ما رأيك به. أومأ الشاب برأسه وهو يبتلع ريقه ـ إنه جيد. علينا أن نختار لها الآن الطرحة والتاج وقال للبائع الذي أثلج صدره اختيارها وغدا مستعداً لإتمام الصفقة

ـ ستجدون في الطابق العلوي نماذج ممتازة. إذاً علينا أن ندفع الحساب الآن كم يروقك أن ندفع ـ اعتبريه هدية ـ لا شكراً

كانت السيدة ذات نفس طويل مضت في أخذ ورد مع التاجر واستطاعت أن تحصل على الفستان بسعر مخفض.

ثم صعدا إلى حيث أشار الرجل كان هناك أشياء جميلة جداً أخرج لها العامل أكثر من طرحة لكنها كانت جميعاً توسطة الطول. قالت كان يجب أن تكون الطرحة أكثر طولاً لكن لا بأس التفتت إلى الشاب ـ هل رأس خطيبتك كبير أم صغير وهل هو طويل وأنفها أيضاً قال ياسر بدهشة.. لماذا؟...

حتى إن كان رأسها وأنفها طويلان فيجب أن يكون التاج من النوع الذي ينام على الرأس أما إذا كان أنفها صغيراً ورأسها عادياً فعلينا أن نختار تاجاً عالياً.. تلجلج الشاب أخذ يتذكر خطيبته رأسها كبير لكنه مستدير وأيضاً أنفها مستدير وكبير وجد نفسه يقول سنأخذ واحداً يقف على الرأس ـ قالت السيدة هكذا لا بأس سيزيد على كل حال في طولها وضع لها البائع ما انتقته في أحد الأكياس.

ـ علينا أن نشتري لها حذاء من الساتان الأبيض. كم هو قياس قدميها فكر الخطيب قليلاً ثم قال في الواقع لا أعرف لكن يمكنني تقدير ذلك ـ قاطعته بما أنها ليست طويلة فلا بد أن تكون قدماها صغيرتان. لكن لا إن الفتاة في القرية تعمل كثيراً وخاصة في الحقل وهذا يجعل قدماها أكبر كما أن صحتها جيدة وبدينة وهذا يساعد في كبر حجمهما. اختارت حذاءً اعتبرت أن مقاسه مناسب قلبته بين يديها بدا جميلاً جداً قالت: ـ إذا وجدت أنه أكبر أو أصغر فيمكنك استبداله أو بيعه في منطقتكم دون عناء يذكر فهو حذاء في غاية الجمال ـ ابتلع الشاب ريقه من جديد وهو يهمس حسناً.

قالت السيدة الآن علينا ان نختار لها الحلي الماسية التي تناسب ثوب العرس بما أن عنقها قصير فلن يكون بإمكانها ارتداء عقد لذلك سنكتفي بشراء أقراط ماسية طويلة تعوض عنه ما رأيك بهذه أومأ لها أن نعم

ـ لا بأس هل ترغب أن نشتري لها أدوات زينة لوجهها هل هي سمراء أم بيضاء أطرق الشاب قليلاً فلاح له وجه خطيبته الذي لوحته الشمس فلم يعرف ما هو لونها الحقيقي. حينما طلب منه أهله الزواج من قريبته هذه وذهب لرؤيتها أعجبته هكذا بمجملها ولم يفكر في هذه التفاصيل، أصبح لديه إحساس أنه مجنون بهذا الزواج. قال بسرعة. لن أشتري لها ذلك ستتدبر أمرها بنفسها.

ـ إذاً علينا أن ندفع الحساب وكما فعلت في الطابق السفلي أيضاً حصلت على تخفيض مناسب على أسعار مشترياتها الجديدة. أخيراً التفتت ناحية ياسر لتودعه وتتمنى له زواجاً موفقاً. كان الشاب شاحباً ومنهكاً تماماً ـ قلا ـ اسمحي لي يا خالة أن أدعوك لشرب فنجان قهوة أو أي شيء ترغبين في أحد الأماكن القريبة ـ هنا ابتسمت ونظرت إلى ساعتها ـ لقد تأخرت يا ولدي فعليَّ أن أعود وأهيء بعض الطعام لزوجي وابنتي كما أني لم أشتر ما أتيت من أجله.

ـ أرجوك ياخالة إنه حديث هام يخصك وهو أمر مصيري بالنسبة لي. بدت على السيدة إمارات التعجب ومضت معه إلى أقرب مشرب. بعد حديث دام أكثر من ساعة استطاع أن يحصل منها على موعد لزيارتهم في المساء لمقابلة زوجها.

في اليوم التالي عادت ترافقها ابنتها والشاب إلى السوق لتبديل الثوب بآخر ذو مقاس مختلف.

قصتان

*لا وقت للكتابة

*مع بقاء الود

بقلم:

شذى برغوث

لا وقت للكتابة

في العتمة يزداد بريق الاشياء.

فكرة لقصة جديدة لاحت في سمائها للحظة، واختفت بين تلافيف المخ.

بحثت عنها أثناء النهار، ونتيجة تشابك التلافيف فقد كثرت أخطاؤها وعثراتها، فصحن الفاكهة الكبير قد انكسر لانها وضعته في مكان أصغر مما يجب.

و(سطل المسح) اندلق ما فيه على أرضية الصالون وكاد ان ينال السجاد.

- طفلها قد فات وقت رضاعه، وعندما تذكرت ألقمته زجاجة الحليب ساخنة جداً فعلا صراخه، واحتارت كيف تصلح ما اقترفت يداها.

أجلّت بحثها بين تلافيف مخها وطمأنت نفسها بأنها ستحظى بفكرتها ولو بعد حين.

هدهدت الصبي فنام وارتاح ضميرها بعد عذاب.

بعد الغداء وما تلاه حان وقت قيلولتها، فتدثرت، وركزت وضع جمجمتها على الوسادة، واستحضرت التلافيف لتبحث بينها عما فقدته في فرصة نادرة الحدوث، قد تطول وقد تقصر فهي رهن بمزاج الصغير.

ما تزال في بادية بحثها حين

...الغرفة عن طفلتها ذات السبع سنوات لتحل لها مسألة الحساب.

أشارت لهابيدها أن اخرجي الآن على الاقل، وجمجمتها في نفس الوضع، حتى لا تتوه بين المنحنيات. فتبحث ما بحثت فيه وتترك مالم...

نعم إنها /هي/ لقد وجدت الفكرة.. وابتسمت، واختارت لا عنواناً.

لم يبق سوى الكتابة.

أغمضت عينيها لتأخذ قسطها من النوم فأمامها ليل طويل.

عندها طرق احمد الباب ماما.. ماما.. بابا يسأل أين وضعتِ البنسة ومفك البراغي ليصلح.. دلّته على مكانها دون ان تفتح عينيها.

لا تدري كم غفت عيناها. دقيقتين.. خمس، ربع ساعة ام نصف ساعة، عندما ايقظتها ابنتها لتقول لها سوف تمر بك خالة.. وخالة .. لزيارة.. فهي مريضة.

نهضت ـ كتبت عنوان القصة على ورقة كي لا يتوه هو الآخر واستعدّت للذهاب.

في طريق العودة ـ كانت تحلم بطفل هادىء وأولاد نيام، وزوج يصلح اي شيء دون ان «يفقد بنسته ومفك براغيه»، وجهاز تلفون اخرس وتلفزيون معطوب لا يمكن اصلاحه.

فتحت الباب بهدوء، وخلعت حذاءها العالي كي لا يحدث صوتاً.

قبل ان تلقي التحية، بادرها زوجها:

ـ اين انت يا شيخة؟ فقد قتلنا الجوع. والاولاد بانتظارك.

الصغير كأنما تشمم رائحتها فصرخ باحتجاج، حملته الى صدرها فكانت «رائحته عجيبة»

ثم أخبرت أن عمو أمجد وزوجته سوف يشربون قهوة المساء عندها.

/الساعة الثانية عشرة ليلاً/

ما ان اغلقت الباب خلف امجد وزوجته مودعة، حتى اخترق اذنها الوسطى والداخلية وضرب أوتار المخ صوت شادي جميل يصرخ:

ـ /يا حلوة كُومي كُومي كَبل ما أشك هدومي/

حاولت ان تتذكر /بوجه مَنْ؟ تصبّحت هذا النهار/ لتلغيه من جدول صباحاتها.

ـ عنوان القصة مكتوب على الورقة ـ ابتسمت له في وعد ضمني ان لن تتأخر عليه هذا اليوم.

ـ اغلقت الباب خلف اخر الذاهبين الى المدرسة وابتسامتها تفضح شعورها، فاليوم ـ عندها طعام لايحتاج سوى تسخين.

البيت في حالة معقولة ـ وأجلت غسل الاطباق الى حين دخولها المطبخ ظهراً، وباتجاه العنوان خطتْ مبتهجة، استوقفها

جرس التلفون فجاوبه صراخ الطفل.

حملت الطفل وكلمت مدام سميرة، وقد لزمها نصف ساعة كاملة من عشر اكذوبات صغيرة لتعتذر عن عزومة قهوتها الصباحية.

زجاجة الطفل وغياراته وكافة مستلزماته قد تمت على خير، ورشاوى متعددة من الضحكات والابتسامات والهدهدات لينام اخيراً.

جلست الى طاولتها - لا وقت للتفكير - قضمت أظافرها - فلديها شعور بان قضم الاظافر يساهم باخراج الكلمات اسرع من المعتاد، وبما ان وقتها قصير فقد قضمتها على عجل وما ان انتهت وامسكت بالقلم حتى قاطعها صوت جرس الباب.

نظرت الى العنوان المصلوب، وفتحت الباب لمحصل الفواتير الذي تسبب عن غير قصد باخراج جارتها صاحبة الظل الخفيف لتتحفها بأحاديثها الشائقة عن الطعام وماشابه.

لا تدري كيف تخلصت منها بحجة ان الصغير يبكي /عن إذنك/.

الساعة الثانية عشرة والنصف وقد حان وقت تسخين الطعام، ستضعه على النار وترجع الى أوراقها.

لقد احتاجت الى قضم اظافرها من جديد وبأسرع من المرة السابقة.

كانت قد اكملت ثلاثة اسطر حين اقتحمت انفها رائحة شياط فركضت صوب المطبخ.

لا وقت لاصالح الخطأ فقد توافد الغائبون، وعلى مائدة الطعام - الصغار قد نبهتهم الى عدم التعليق - اما الزوج فسوف تحايله ما استطاعت، راحت تأكل بشهية مكذّبة اتهامه لشياط الطعام، وعندما اصرّ، قفزت من مكانها بحجة ان ابريق الشاي قد غلى، وغابت مدة كافية كي تعود ولا تجده على المائدة.

- نهار اخر والعنوان مع الاسطر الثلاثة بانتظار الرحمة.

هذا الصباح قد تصبحت بوجهها في يالمرآة - امها تقول عنها دائماً بأنها عاقلة والمصريون يقولون /نهارك زي وشك/.

عندما نام صغيرها جلست أمام طاولتها لتحسبها كما يجب ان تحسب، فوجدت نفسها كمن يحمل بطيختين بيد واحدة.

قد يحملها لفترة لكنها مهددة بالسقوط احداهما او كلتاهما، كانت تكلم نفسها كما تفكلم احداً اخر وتضع اشارات ورموزاً على الورق على شكل عمودين متقابلين، نقاط مع، ونقاط ضد..

وصلت الى نقطة الاختيار بين بطيختيها ومنطقياً اختارت

الابتعاد عن الكتابة.

قبل ان تنهض امسكت بالقلم ووضعت عنواناً /لا وقت للكتابة/ وبدأت بالسطر الاول.

احسسّت ان القلم يداري ابتسامته ويذكّرها بجداولها وقراراتها، فقالت بصوت مرتفع:

//هذه المرّة فقط//.

مع بقاء الود

الاطراف تخدرت، والجسد تراخى وأسبلت اجفان العيون الهدوء والعتم والبرودة اللذيذة التي ينثرها جهاز التكييف ترسم ابتسامة سعادة حتى على الوجوه الغافية.

تكّات الساعة التي لا تسمع نهاراً، تعالت ضرباتها. فتحت عيني وقد مضى على تراخي جسدي وإغماض عيني ساعة كاملة ومازال مستيقظاً - أغمضتهما ثانية ووضعت وسادة خفيفة اسد بها أذنيّ، ورجوته ان يهدأ ، توقعت انه سينام لا محالة بعد ساعة اخرى من خدر الاطراف واسبال الاجفان والبرودة اللذيذة، لكنه مازال يعمل - حاولت ان اساعده - ان اعرف ماذا يفعل وما الذي يشغله، طلبت منه ان يشركني بمتاعبه علّي أن أساعده أو نتوصل معاً الى نقطة توقف مؤقتاً والمتابعة صباحاً - فاستمرت على ما كان عليه واهملني كما لم اكن موجودة، توسلت اليه فلم يستجب.

قرأت عليه آيات من القرآن الكريم علمتني اياها أمي لأقرأها قبل النوم، ووضعت يدي على جبينه، ودعوت دعاء الارق وأبقيت يدي مدة كافية علّ دفأها وثقلها يهدىء من روعه فينام أو يجاملني ويستكين وقد أعياني السهر، تيبست يدي فسحبتها الى جانبي - فعاد الى ما كان عليه.

أثارني ضجيجه، وعقرب الساعة قد ابتعد مسافة كبيرة عن موقعه الاول.

تحفزت ودب في جسدي المتراخي نشاط مؤلم انتزعته من موقعه واجلسته قبالتي - هززته لتستقر مبعثراته في اماكنها - /قابل ثورتي بجمود متعمد/.

بادرته بمزيج من الثورة والضراعة والاستفهام.

قلّي ما الذي يشغلك - لماذا تعذبني - دعنا نتفاهم.

برهة من الصمت، وأجاب.

أطلق اتهاماته بتركيز واختصار.

- انت كسولة

- كسولة!؟

- انت تعرقلين مساراتي.

- أولسنا واحداً؟!

- من فضلك لسنا واحداً.

- كيف ! وأنا أحملك على كتفيّ عمراً مضى، وقد احملكَ عمراً آخر؟

- الارتباط الاضطراري لا

يعني اننا واحد.

ـ او تستطيع العيش بدوني.

ـ استطيع العيش معك اذا سمحت لي بالقيادة.

ـ ماذا يضيرك من قيادتي؟

ـ خوفك وكسلكِ ـ الاسوار التي تحتمين داخلها ـ القوانين الصارمة التي تبتعلينها دون اعتراض ـ القيود التي تستسلمين لها بخنوع ـ كل ذلك لا يناسبني ـ الاجواء والاماكن التافهة التي تتواجدين بها.

ـ ماذا يناسبكَ إذاً.

ـ الحرية ـ الانطلاق ـ أنا طائر بري وأنت قفصي ـ لا احب الاقفاص حتى لو كانت من الذهب ـ أحب الاسفار ـ البحار ـ البراري ـ الزهور ـ الغيوم ـ الطيور، وأنت تربطني اليك على ارض واحدة واناس متشابهون بأفعال ممجوجة وكلام مكرور ومَلَلْ.

أذهلني كلامه وزاد خوفي الذي اتهمني به فها أنا أقع في مطب آخر لا أعرف التخلص منه، ولزمت الصمت.

عاد يشوش ويدق ويبعثر أشياءه كطفل شقي مجنون لا يدري أن الاسوار حماية، والقيود فرملة، والقوانين ضرورة.

الساعة تحث سيرها لبداية اخرى.

هزرته من جديد ليرتب أشياءه ويسمعني جيداً.

ـ ما رأيك أن ننام الآن، وغداً يوم آخر.

ـ هذا تسويف.

ـ لقد أعياني السهر.

ـ حسناً سأنام الآن وصباحاً أتسلم مهمات القيادة.

ـ غداً نتفاهم.

ـ لم تمض ساعة واحدة حتى أيقظني من جديد يطلب تسلم القيادة.

تشنجت اطرافي ونهضتُ بعصبية ـ اقتلعته من جديد وهززته بعنف وقسوة، ليفهم انه لو اتهمني بالخوف لا يمكنه ان يتهمني بالجبن والتخاذل امام قرارات يتخذها منفرداً.

امسكت بخناقه، فجحظت عيناه دهشة ورعباً فاغتنمت الفرصة لأملي عليه قراراً لا رجعة فيه ووجوب موافقته عليه ولا خيار.

أومأ معلناً استعداده لسماعي.

فأعلنته أننا حالياً يجب ان نتفق على ان ننام معاً ونستيقظ معاً.

هذا أولاً.

وثانياً يجب ان نتفق فتساءل متعجلاً على ماذا؟ فأجبته بتصميم.

//على ألا نتفق مع بقاء الود//.